

الأخلاق

فى القرآن والسنة

(الجزء الثالث)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

وعضواتحاد كتاب مصر وعضورابطة الأدب الاسلامى

العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا - سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب . - ط ١ . - دسوق : دار العلم

والإيمان للنشر والتوزيع

١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥ سم .

تدمك : 7-344 - 308 - 977 - 978

١ . الأخلاق الإسلامية

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات - ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

الفهرس

الصفحة	المحتويات	مسلسل
٥ مقدمة	١
٧ الرهبة من الله	٢
٥٨ الإخلاص	٣
٦٤ سلامة الصدر من الأحقاد	٤
٦٨ القوة	٥
٧٥ الجود والكرم	٦
٨٢ الإخاء	٧
٨٩ اختيار الصديق	٨
٩٥ القصد والعفاف	٩
١٠٢ النظافة والتجميل والصحة	١٠
١١١ الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن	١١
١٢٠ التقوى	١٢
١٥٢ الاستقامة	١٣
١٦٤ إكرام الضيف وإطعام الطعام	١٤
١٧٥ مصادر الكتاب	١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح العرب لساناً وأبلغهم حجةً وبياناً ، وعلى آله وصحابته والتابعين عليهم من الله رضواناً .

أما بعد

فقد تآذن المولى – سبحانه وتعالى – بإتمام الجزء الثالث من الموسوعة العلمية وهي " الأخلاق في القرآن والسنة " . وقد حوى هذا الجزء بين دفتيه الموضوعات الآتية : الرهبة من الله ، معاداة الشيطان ، الإخلاص ، سلامة الصدر من الأحقاد ، القوة ، الجود والكرم ، الإخاء ، اختيار الصديق ، القصد والعفاف ، النظافة والتجميل والصحة ، الانتفاع بالوقت والاعتناء بالزمن ، التقوى ، الاستقامة ، إكرام الضيف وإطعام الطعام فإن كنت قد وفقت فله الحمد والمنة ، وإن كانت الأخرى فحسبي أنى اجتهدت .

أ . د / على الخطيب

الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف



الرهبة من الله

ومن الأخلاق التي يرشدنا إليها القرآن الكريم "الرهبة من الله". فإن الخوف من الله - سبحانه وتعالى - وخشيته تجعل المؤمن يجتنب ما نهى الله عنه، ويفعل ما أمره الله به وبذلك ينجو من الوقوع في المعصية، وينأى بنفسه عن ارتكاب المناكر، وأقتراف الآثام، وأجترح السيئات. يقول الله تعالى: ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ ۗ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۚ ﴿٣﴾﴾ [سورة الطلاق: ٣]

وحول الرهبة من الله - عز وجل - تتحدث هذه الآيات التي سنقوم بإذن الله بسردها، وشرحها ووفائها حقها، وذلك بعون الله - سبحانه وتعالى - يقول الله تعالى: ﴿يَبْنَئِ أَسْرِيَّ يَلْ أذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ۗ﴾ [سورة البقرة: ٤٠]

والمعنى: يا أبناء النبي الصالح "يعقوب" - عليه السلام - اذكروا ما أنعمت عليكم به، وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى، وأوفوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة أوف كما عاهدتكم عليه من حسن الثواب.

فلو أنهم آمنوا بما أنزل إليهم، وآمنوا بمحمد - ﷺ -، واتبعوا النور الذي أنزل معه لكانوا من الفائزين. أما عهد الله لهم فإنه يُمكن لهم في الأرض المقدسة، ويرفع لهم السعادة في الآخرة. ولما كان من موانع الوفاء بالعهد خوف بعضهم من بعض، ذُكرَ هنا أن الخوف يجب أن يكون من الله وحده فقال: ﴿... وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ۗ﴾ [سورة النحل: ٥١]

يعنى: لا ترهبوا ولا تخافوا إلا من بيده مقاليد الأمور كلها، وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى، وهو القادر وحده على ساحبها منكم، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها، ولا يرهب بعضكم بعضا خوف فوت المنافع ونزول

بعض الأضرار إذا أنتم اتبعتم الحق ، وخالفتم غيركم من الرؤساء ، وفي المعنى ذاته يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنِّعُوا عَلَيَّ وَلَا تَمَنِّعُوا عَلَيَّكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٥٠] . والمعنى : ومن أي مكان خرجت ، وفي أي بقعة حلت ، فول وجهك في صلاتك شطر المسجد الحرام وقد أعاد الأمر مرة أخرى لتبيان أن هذا التولى عام في كل زمان ومكان . ولا يختص بلاد دون بلاد أخرى ، ولا بحضر دون سفر لا بالصلاة التي كان يصليها وقد نزل عليه التحويل فيها ، بل هو شريعة عامة في كل حين وفي كل مكان ، وإن أصحاب هذه القبلة يصلون إلى جميع الجهات نوليهم إياها في بقاع الأرض المتباينة شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً .

ثم أكد ذلك ووثقه بقول الحق تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [سورة يونس: ١٠٨] والمعنى : إن تولىك إياه لهو الحق من ربك . الحق الثابت الموافق للحكمة والمصلحة والله ليس بغافل عن أعمالكم وإخلاصكم في متابعة النبي - ﷺ - وفي كل ما يحى به من أمور الدين ، وسيجازيكم بذلك خير الجزاء .

وغير خافٍ ما في هذا الوعد والبشارة للمؤمنين بنيل المكافأة على ما يفعلون ومن حيث خرجت في أسفاركم في المنازل القريبة ، أو البعيدة فول وجهك جهة المسجد الحرام وحيثما كنتم من أقطار الأرض مقيمين ، أو مسافرين واصلتم فولوا وجوهكم شطره . وأعاد الأمر مرة ثالثة عناية بأمر هذا التولى ، وليرتب عليه الحكم والمنافع الثلاث الآتية وهى :

أولاً : لئلا يكون للناس عليكم حجة ، يعنى لئلا يكون للمشركين والكفار عليكم حجة وسلطان . خاصة أنهم كانوا يعلمون من كتبهم أن النبي الذي سيبعث من ولد " إسماعيل " يكون على قبلته وهى الكعبة . فلما جاء هذا التحويل عرفوا انه الحق من ربهم .

ثم خذوا أهبتكم ، وتوكلوا على ربكم فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً في قلوبكم . وفي هذه الآية عبر كثيرة وعظات وهي :

أولاً : إن المؤمن الصادق الإيمان لا يكون جباناً فالشجاعة من صفات المؤمنين .
ثانياً : في استطاعة المؤمن مقاومة أسباب الخوف .

ثالثاً : إذا عرضت له أسباب الخوف فعليه ألا يسترسل لها حتى يتمكن أثرها في نفسه ، وتتجسم صورتها في خياله ، بل يغالبها بصرفها عن ذهنه ، وشغله بما يضاها ، ويذهب بآثارها ، أو يتبدلها بآثار مناقضة لها ، وهذا يدخل في اختيار الإنسان ، وهو الذي ينيط به التكليف .

وفي المعنى ذاته يقول المولى - سبحانه وتعالى - : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيَّةٌ وَالذَّمُّ وَالْحَمُّ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِعَنِّهِ اللَّهُ بِهِ وَالْمُنْخِفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقِسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا مَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهَا مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ [سورة المائدة: ٣: ٤]

وقوله تعالى : ﴿ لِيَنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْنَلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْنَلِكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ [سورة المائدة: ٢٨] .
وفي نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُغُوَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٩٤﴾ [سورة المائدة: ٩٤]

فمن الأخلاق القرآنية أن ينأى المسلم بنفسه عما حرمه الله ، ويبينه فى كتابه مثل الميتة وهو ما مات حتف أنفه يعنى بدون فعل فاعل ، وفى عُرْف الشارع ما مات ولم يذكره الإنسان لأجل أكله . والدم المسفوح وهو الذى يسفح ويراق من الحيوان وإن جمد بعد ذلك مجاف المتجمد بالطبيعة مثل " الطحال ، والكبد ، وما يتخلل اللحم عادةً " فإنه لا يسمى مسفوحاً . والحكمة فى ذلك التحريم هو الضر والاستنذار ، أما الضر فهو " عسر الهضم ، ويحمل كثير من المواد العفنة التى تحل من الجسم وهى فضلات لفظتها الطبيعة كما تلفظ " البراز " ونحوه ، واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم . وقد يكون فيه جراثيم بعض الأمراض المعدية ، ومن هنا أتفق الأطباء على وجوب غلى اللبن قبل شربه ، وذلك لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية . وحرّم لحم الخنزير لما فيه أيضاً من الضر والاستنذار للآلته القاذورات ورغبته فيها . " وما أهل لغير الله به " ، والمراد ما ذبح على ذكر غير الله - سبحانه وتعالى - من المخلوقات التى يعظمها الناس تعظيماً دينياً ، ويتقربون إليها بالذبائح . وكانوا فى الجاهلية يذبحون لأصنامهم ويرفعون أصواتهم قائلين " باسم اللات " أو " باسم العزى " والحكمة فى ذلك أنها عبادة لغير الله تعالى . وهوسر التحريم . والمنخقة : هى التى تخنق بشيء فتموت بسببه . والموقونة : وهى التى تقتل بعصا ، أو بحجارة فتموت بلا زكاة ، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية . والمتريدة وهى التى تتردى وتقع من مكان شاهق شامخ مرتفع كجبل ونحوه . والنطيحة : وهى التى تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح وما أكل السبع وهو: الذى قتله سبع الوحوش كالأسد والذئب والنمر ونحوه. لقوله "إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ" يعنى إلا ما أدركتموه ، فذبحتموه . "وما ذبح على النصب " وهى كانت حجارة حول الكعبة وعددها ستون صنماً وثلاثمائة ، وكان أهل الجاهلية يذبحون عندها تقرباً وهو يعد من جنس ما أهل به لغير الله . حيث أنه يذبح بقصد العبادة لغير الله - سبحانه وتعالى - . ﴿.....وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا

يَا الْأَزَلِمِ ﴿ [سورة المائدة: ٣] وهى قطعه ، من الخشب على هيئة السهم بيد أنه لا يركب فيه " النصل " وكانت ثلاثة : كتب على أحدها " أمرني ربى " وعلى الثاني " نهاني ربى " وعلى الثالث " غفل ليس عليه شيء " . فإذا أراد أحدهم زواجاً أو سفرًا حرك هذه الأزلام فإن خرج له " أمرني ربى " مضى لما أراد ، وإن خرج له " نهاني ربى " أحجم عن ذلك . وإن خرج " الغفل " الذى لم يكتب عليه شيء أعاد الاستقسام .

وهو: طلب معرفة ما قسم الله له دون ما لم يقسم بواسطة الأزلام والسرفى التحريم أنها من قبيل الخرافات والأوهام والتى لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل ومثله فى عصرنا " التمام " التى تعلق فى رقاب الأطفال وضرب الودع ومشهور فى صعيدنا ويعرف " بضرب الرمل " ومعرفة البخت وغير ذلك من البدع والخرافات التى تنطلي على كثرة كاثرة من الجهلة والمغفلين وما أكثرهم .

﴿... أَلْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾

[سورة المائدة: ٣] وهو " يوم عرفة " من حجة الوداع من السنة العاشرة من الهجرة النبوية الكريمة وكان يوم جمعة وهو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآية المبينة لما يقر من الأحكام التى أبطل بها الإسلام بقايا مهانة الجاهلية ، وخبائثها ، وأوهامها ، والمبشرة بانتصار المسلمين على المشركين . وأخرج البيهقي فى شعب الإيمان عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله : ﴿... أَلْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ...﴾ . يقول : يبس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبدا . "فَلَا تَخْشَوْهُمْ" فى إتباع محمد - ﷺ - { ... وَأَخْشَوْنِي ... } فى عبادة الأوثان وتكذيب محمد - ﷺ - . ومجمل المعنى : اليوم انقطع رجائهم من إبطال دينكم ورجوعكم عنه ، لما شاهدوا من فضل الله عليكم ، وإذ وفى بوعده وأظهره على الدين كله . وفى الآية بشارات ثلاث :

رؤى عن " ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : لما كان النبي - ﷺ - واقفا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يده والمسلمون يدعون الله . " ... **أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ... " يقول : حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام . " ... **وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ... " . قال : منّي فلم يحج معكم مشرك . ﴿ ... **وَرَضِيْتُ** ... ﴾ يقول : واخترت لكم الإسلام دينا مكث رسول الله - ﷺ - بعد نزول هذه الآية إحدى وثمانين يوماً ثم قبضه الله إليه .

ويقول صاحب الكشاف : " وقيل : يئسوا من دينكم أن يغلبوه؛ لأن الله عز وجل وفى بوعده من إظهاره على الدين كله { ... **فَلَا تَحْشَوْهُمْ** ... } بعد إظهار الدين ونزال الخوف من الكفار ونقلابهم مغلوبين مقهورين بعدما كانوا غالبين { ... **وَأَحْشَوْنِي** ... } وأخلصوا لي الخشية { ... **أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ... } كفيتكم أمر عدوكم ، وجعلت اليد العليا لكم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيتهم . أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد { ... **وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ... } بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن لم يحج معكم مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . أو أتمت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام ﴿ ... **وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا** ... ﴾ يعني اخترته لكم من بين الأديان ، وأذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده . يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ** ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] . وفى معنى الآية ما جاء في سورة البقرة ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ** إِنَّ

اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ [سورة البقرة: ١٧٣]. فالمضطر غير متعد ولا متجاوز فلا إثم عليه حيث إن الله غفور رحيم .

ويقول -صلى الله عليه وسلم-: " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينُ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ " (١) .

وما نزل القرآن الكريم يرشدنا إلى الأخلاق والفضائل فيقول- سبحانه وتعالى:- ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ

أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ [سورة المائدة: ٢٧: ٢٨]. و" القربان " عند النصارى هو ما

يُعدُّسه الكاهن من " الخبز والخمر " فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقةً . أما القربان لدى المسلمين فهو اسم لذبائح النُسك مثل " الأضاحي " وغيرها .

فالذي لم يتقبل منه توعده أخاه وحلف ليقتلنه ، فأجابه الآخر أحسن إجابة حيث قال له " ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ... " يعنى لا يقبل الله الصدقات وغيرها من

الأعمال إلا ممن يتصف بتقوى الله ، والخوف من عقابه باجتنابه الشرك ، وسائر المعاصي كالرياء ، والشح ، وإتباع الأهواء . ومجمل القول : إنني لم أفعل معك ما

يكون سبباً في قتلى فإن كان الله لم يتقبل منك قربانك فأصلح نفسك وحاول أن تعرف السبب في عدم القبول . فالله يتقبل الأعمال الصالحة ومن المتقين له

الخائفين منه . ويتقرب إليه بالطيبات من الأعمال . يقول الله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾ [سورة

آل عمران: ٩٢]. وفي الحديث " إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً " . ثم يبين القرآن حرمة الدماء ، وأنه من الواجب على الناس احترامها فقال : ﴿ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ

يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

[سورة المائدة: ٢٨]، والمعنى لئن مددت إلى يدك لتقتلني ما مددت يدي إليك لأقتلك فلا أجازى على السيئة سيئة مثلها ، ثم يبين الله - سبحانه وتعالى - السبب فى ذلك بقوله ﴿... إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨) فالسبب هو رهبة الله وخشية وخوف من الله - عز وجل - ، وهو جواب يحمل أبلغ المواعظ والاعتبار والأركان وهو الرهبة من الله - سبحانه وتعالى - والخوف منه فهو رب العالمين الذى رباهم على نعمه ، وخصهم برحمته .

يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - : المعنى : ما أنا بمنتصر لنفسي . ويقول صاحب الكشاف : " كان " هابيل " أقوى من القاتل ، ولكنه تخرج عن قتل أخيه خوفاً من الله .

وقد روى " أحمد والشيخان " وغيرهم قوله - ﷺ - : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول فى النار " . قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل . فما بال المقتول ؟ .

قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه .

وفى الرهبة والخوف من الله يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٤) [سورة المائدة: ٩٤] . والمعنى : بعد أن نهى الله - سبحانه وتعالى - عن تحريم ما أحل من الطيبات ، ثم استثنى الخمر والميسر واستثنى هنا مما يحل الصيد فى حال الإحرام ، وأوجب جزءاً على قتله ، وبَيَّن أن صيد البحر وطعامه حلال وقد نزلت هذه الآية " عام الحديبية " حيث ابتلاهم الله بالصيد وهم مُحْرَمُونَ ، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم فى رحالهم فيتمكنون من صيده أخذاً بأيديهم ، وطعنأ برماحهم . يقول صاحب البحر المحيط : " وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ بأقتناصه ، ولهم فيه الأشياء والأوصاف الحسنة .

وذلك الابتلاء ليعلم الله من يخافه ويخشاه ، ويرهبه بالغيب طمعاً في رحمته وخوفاً من عذابه . ووجه الابتلاء بالصيد هو أن الصيد طعام لذيذ تشتد الحاجة إليه في الأسفار الطويلة ، وسهولة صيده وتناوله يغري به ، إذ ترك ما لا ينال إلا بمشقة ، وجهد ونصب وتعب ، لا يدل على التقوى والرهبه من الله مثلما يدل عليه ترك ما ينال بسهولة ويسر . وذلك ليعلم الله من يخافه بالغيب . (١)

وما يزال القرآن الكريم يحدثنا عن الرهبه من الله - سبحانه وتعالى - فيقول: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥]. والمعنى قل لهم إنني أخاف إن عذبت غير ربى عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة . ويقول " المراعى " في تفسيره: " قل لهم إن فرض وقوع العصيان منى فإنى أخاف أن يصيبني عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذى يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون . وفي الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيماً ، وأنه لا تنفع فيه الشفاعة ، بل الأمر يومئذ لله ، فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه ظناً منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيّه ، وإذا كان خوف النبى - ﷺ - من العذاب على المعصية منتفياً لوجود العصمة ، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له فى جميع الأحوال .

١- تفسير المراعى ج ١ ، ص ١٠٠ ، وص ١٤ - ١٨ بتصرف وأيضاً ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، وج ٢ ص ٤٧ - ٥٥ ، وج ٢ ص ٩٨ وما بعدها ، وج ٣ ، ص ٣٠ - ٣١ .

- صفوة التفسير ج ١ ، ص ٥٣ .
- تفسير الكشاف للزمخشرى بتصرف ج ١ ، ص ٤٨٥ - ٤٦٨ .
- تفسير النسفى .
- تفسير القرآن الكريم لعبد الكريم الخطيب .
- مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ، ص ٣٤٠ .
- تفسير الطبرى ج ٩ ، ص ٥٠٢ .
- تفسير البيضاوي ص ١٦٠ .
- تفسير البحر المحييط ج ٤ ، ص ١٦ .

ويقول القرآن الكريم في نفس المعنى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٥١]. والمعنى : خَوْفَ يَا مُحَمَّد - عليك الصلاة والسلام - بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر. يقول أبوحيان : " وكأنه قيل : أندر بالقرآن من يرجى إيمانه ، أما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم . فهوؤلاء ليس لهم ولي ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ، فانذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي " . ويقول - سبحانه وتعالى - أيضا : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٨١]. والمعنى : كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان . فَأَيُّنَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ؟ نحن أحق بالأمن وقد عرفنا الله بأدلة ، وخصصناه بالعبادة ، أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديان . !! ٩ .

ثم يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢]. أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك فهوؤلاء لهم الأمن من العذاب يوم القيامة ، وهم على هداية ورشاد . وروى أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي - ﷺ - فقالوا : وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ؟ فقال النبي - ﷺ - : " ليس كما تظنون ، وإنما هو كما قال لقمان " لإبنه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " . (١)

وفي باب الرهبة من الله تحدثنا " سورة الأعراف " فتقول في بعض آياتها : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦] يقول ابن كثير - رحمه

الله تعالى - : " ينهى الله تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشيةً على السداد ، ثم وقع الإفساد بعد ذلك ، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى الله تعالى عن ذلك ، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: { **وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا** } أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: { **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** } أي: إن رحمته مُرْصَدَةٌ للمحسنين، الذين يتبعون أوامر، ويتركون زواجره، كما قال تعالى:

{ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** } (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ } . وقال:

"قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ" . ولم يقل: "قريبة"؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين . وقال مطر الوراق: تَجَزَّوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين فإنه أن رحمته قريب من المحسنين .

وفى آية أخرى يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ فِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾ (١٥٤)

[سورة الأعراف: ١٥٤]. والمعنى: لما سكت عن موسى الغضب على قومه أخذ الألواح التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيراً لله و غضباً له . ويقول كثير من المفسرين: " إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها، وهي من جوهر الجنة . فقد أخبر الله تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمةً.

{ الَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدّها "باللّام".
وقال قتادة: في قوله تعالى: { أَخَذَ الْأَلْوَاحَ } قال: " رب ، إني أجد في الألواح أمة
خير أمة أخرجت للناس، يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي .
قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - أي آخرون في الخلق - السابقون
في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي.
قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها - كتابهم - وكان
من قبلهم يقرءون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئاً، ولم
يعرفوه. قال قتادة: وإن الله أعطاهم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه
أحدًا من الأمم. قال: رب، اجعلهم أمتي.
قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر،
ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي.
قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرن عليها -
وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه ، بعث الله عليها
ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تُرِكَت ، فتأكلها السباع والطيور، وإن الله أخذ
صدقاتكم من غنيكم لفقيركم - قال: رب، اجعلهم أمتي.
قال: تلك أمة أحمد.

قال : رب ، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها، كتبت له
حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف رب اجعلهم
أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال : رب، إنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي .

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إنى أجد فى الألواح أمة هم المستجيبون والمستجيبات لهم، فاجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: فتادة فذكر لنا أن نبي الله موسى - عليه السلام - نيد الألواح، وقال اللهم اجعلني من أمة أحمد - صلى الله عليه وسلم - .

تلك هى الرهبة من الله - سبحانه وتعالى - ، وهى الخضوع له ، وخشيته والخوف من عقابه ، والطمع فى رحمته : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١٦] أي : ينأى ويتنحى ويبتعد عن الفرش ساهرين الليل فى طاعته ، وعبادته وتوحيده، وإجلاله طمعاً فى رحمته ، وخوفاً من عذابه .

وفى المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٥]. والمعنى : يأمر الله - سبحانه وتعالى - بذكره أول النهار وآخره كثيراً كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله تعالى : " وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ " . وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وقال ها هنا بالغدو- وهو أوائل النهار: " وَالْآصَالِ " جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: "تَضَرُّعًا وَخِيفَةً". أي: اذكر ربك في نفسك رهبةً ورغبةً، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: "وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ". وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً ولا جهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: أقرِّب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ . فأذن الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: "رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - : "أيها الناس ، أربِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا ؛ إِنْ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ اقْرَبْ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ ". وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية : أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة . وهذا بعيد مُتَأَنِّفٌ لِلْإِنْصَاتِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواءً كان سرًّا أو جهراً، فهذا الذي قاله لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والأصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٦] وإنما ذكرهم بهذا ليشبهه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود ها هنا لما ذكر سجودهم لله - عز وجل - ، كما جاء في الحديث: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأولى، ويثراصون في الصف". وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رِوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، عن أبي الدرداء، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه عدها في سجديات القرآن.

ويقول بعض المفسرين : " دون الجهر بالقول " . يعنى : وسطاً بين الجهر والسر والغدو والأصال أي فى الصباح والعشى ولا تغفل عن ذكر الله – سبحانه وتعالى – ولا يتكبرين عن عبادة ربهم . ولا يسجدون لغيره – سبحانه وتعالى – (١) . ومع الأخلاق القرآنية ، والتي يحثنا عليها القرآن الكريم نرى ذلك جلياً واضحاً فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٢] . يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية : " وصف الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه . ويظهر فى هذه الآية قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَيَشْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٣٤] الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة الحج: ٣٤: ٣٥] . وقال تعالى أيضا : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَنَطَمَنُوا قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد: ٢٨] . فهذا يرجع إلى كمال المعرفة ، وثقة القلب ، والوجل وهو الفزع من عذاب الله . وقد جمع الله بين المعنيين فى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ءَمَّنَ يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ [سورة الزمر: ٢٣] . يعنى : تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الضغام من الزعيق والزئير ومن الذهاق الذي يشبه نهاق الحمير . فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجل وخشوع:

١- تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

□ ذاته ص ٢٤٩ .

□ ذاته ص ٢٨١ .

□ صفوة التفسير ج ١ ، ص ٤٨٩ .

لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواقف الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله.

ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا فَاكُنْ بِكَ مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة المائدة: ٨٣]. فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم.

ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقته، فمن كان مستناراً فليس مستنيراً، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون. روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألو النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى أحفوه، في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: " سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا ".

فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يديه أمر قد حضر.

قال أنس: فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي وروى الترمذي وصححه عن العرياض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - موعظة بليغة ذرقت منها العيون، ووجلت منها القلوب. وسأل رجل " الحسن " فقال: يا أبا سعيد، أمؤمن أنت ؟ .

فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن .

- وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ - إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا " فوالله ما أدري أنا منهم أم لا . وقال أبو بكر الواسطي : من قال أنا مؤمن بالله حقاً، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف وإطلاع وإحاطة ، فمن فقد بطل دعواه فيها . يريد بذلك

ما قاله أهل السنة : إن المؤمن الحقيقي من كان محكوماً له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سر حكيمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقاً غير صحيح .

وحول الرهبة من الله - عز وجل - تتحدث هذه الآيات من سورة التوبة ، وهي قوله تعالى : ﴿الْأَنْفَالُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَّهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَتَبْنَا لَهُمُ الْكُفْرَ أَفَلَا يَحْشَوْنَ اللَّهَ ۗ وَاللَّهُ أَهَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة التوبة: ١٣]. والمعنى : توبيخ وفيه معنى التحضيض نزلت في كفار مكة كما ذكرنا آنفاً وهموا بإخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - أي كان منهم سبب الخروج فأضيف الإخراج إليهم وقيل : أخرجوا الرسول عليه الصلاة والسلام من المدينة لقتال أهل مكة للنكت الذي كان منهم عن الحسن وهم بدأوكم بالقتال أول مرة أي نقضوا العهد وأعانوا " بني بكر " على " خزاعة " وقيل : بدءوكم بالقتال يوم بدر لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج للغير ولما أحرزوا غيرهم كان يمكنهم الانصراف فأبوا إلا الوصول إلى بدر وشرب الخمر فيها ، حيث قال أبو جهل لن تغادر بدر حتى يرهبنا الناس .^١ فَأَلَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ " . يعني تخافوا عقابه في ترك قتالهم من أن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه . وقيل : إخراجهم الرسول منعهم إياه من الحج والعمرة والطواف وهو ابتداءؤهم . ينهاهم القرآن عن خشية أحد سوى الله فهو أحق بالخشية والخوف لأنه خالقهم ، وناصرهم على أعدائهم ، وهو القادر على كل شيء فالله - سبحانه وتعالى - أحق بالخشية والرهبة ، فواجب المسلم ألا يرهب أحداً غير الله ، فهو المالك لكل شيء وهو المحيي والمميت ، والمعز والمذل ، والقاهر ، والرازق ولا يقدر على ذلك غير الله ، فهو أحق بأن تخشوه ؛ إن كنتم مؤمنين .

وفى نفس المعنى قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ ۗ فَعَسَىٰ أَوْلَىٰكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة التوبة: ١٨].

والمعنى : " إنما تستقيم عمارة المساجد ، وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله ، الموقن بالآخرة ، وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة المفروضة بشرطها ، ولم يخف سوى الله - سبحانه وتعالى - ، ولم يرهب أحداً سواه فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وفى زميرتهم يوم القيامة .

يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - : " كل عسى فى القرآن واجبة " .
قال الله تعالى لنديه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [سورة الإسراء: ٧٩] . يقول : " إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهى " الشفاعة " ويقول أبو حيان : " وعسى من الله تعالى واجب حيثما وقعت فى القرآن ، وفى ذلك قطع أطماع المشركين أن يكونوا مهتدين إذ من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من ترجى له الهداية ، فكيف بمن هو عارٍ منها ؟ . وفى ذلك ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاعتراض بالأعمال الصالحة ، فربما دخلها بعض المفسدات وصاحبها لا يشعر بها .

وفى معنى الرهبة من الله يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة هود: ٢٣] . والمعنى : هؤلاء الذين جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح " الإخبات " وهو الاطمئنان إليه - سبحانه وتعالى - ، والخشوع له ، والانقطاع لعبادته ، أولئك الْمُتَعَمِّون فى الجنة لا يخرجون منها البتة . وهذا جزء الرهبة من الله وخشيته والخوف منه - عز وجل - .

وفى المعنى نفسه يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [سورة الرعد: ٢١] . والمعنى : الذين يصلون الأرحام التى أمر الله بصلتها ، ويهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ، ويخافون الحساب السيء الذى يؤدى إلى دخول النار فهم لرهبتهم وخوفهم لله - سبحانه وتعالى - جادون فى طاعته ، محافظون على حدوده ،

تتجافى جنوبهم ، وتتنحى عن مضاجعهم خوفاً من عذابه ، وطمعاً فى رحمته . هؤلاء الذين يرهبون الله - سبحانه وتعالى - ويعملون حساباً للقائه حين يعقون فى عرصات القيامة للجزاء . فهم يرهبونهُ ويخافون يوماً عبوساً قمطيرياً ، ولرهبتهم من هذا اليوم ولقاء الله - سبحانه وتعالى - يعملون بجد واجتهاد فى طاعته وعبادته لذلك يحميهم الله من شر ذلك اليوم ، ويلقون نضرةً وسريراً .

ويقول الله - عزوجل - فى المعنى ذاته : ﴿ وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [سورة إبراهيم: ١٤] . والمعنى : "ولأمنحكم سُكُنَى أرضهم بعد هلاكهم ، وذلك النصر للرسل ، وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يدي ، وخاف عذابي ووعيدي . يقول صاحب البحر المحيط : " ولما أقسموا بهم على إخراج الرسل والعودة فى ملتهم ، أقسم تعالى على إهلاكهم . وأبى إخراج أعظم من الإهلاك ، بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً ، وعلى إسكان الرسل ومن آمن بهم وذرياتهم أرض أولئك المُقسِمين على إخراج الرسل .

وفى نفس المعنى يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا مَا هُوَ إِلَهُهُ وَحْدٌ فَإِنِ لِي فَارْهَبُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ [سورة النحل: ٥٠: ٥١] . والمعنى : يخاف هؤلاء الملائكة التي فى السماوات ، وما فى الأرض من دابة ، ربهم من فوقهم ، أن يعذبهم إن عَصَوْا أمره ، ويفعلون ما يؤمرن ، يقول : ويفعلون ما أمرهم الله به ، فيؤتُونَ حقوقه ، ويجتنبون سُخْطه .

ومثل هذه الآية فى المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ ﴾ ﴿١٥﴾ [سورة الرعد: ١٥] . ومجمل القول : " إنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته ، وكبريائه ، تدين له المخلوقات بأسرها ، جمادها ، ونباتها ، وحيوانها ومكفوها من الإنس والجن والملائكة . ثم يقول - سبحانه وتعالى - لعباده : " لا تتخذوا لي شريكاً ، ولا تعبدوا سواي فإنكم

إذا عبدتم معي غيري جعلتموه لي شريكا ، ولا شريك لي إنما هو إله واحد ، ومعبود واحد ، وأنا ذاك ، فاتقوني ، وخافوا عقابي ، بمعصيتكم إياي ، بإشراككم بي غيري ، أو عبادتكم سوى . وإنما ذكر العدد في قوله : " لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ " مع أن صيغة التثنية مغنية عنه ، للدلالة على أن المنهي عنه هي التثنية ، وأنها منافية للإلوهية ، كما أن وصف الإله بالواحد في قوله تعالى : " إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ " وذلك للدلالة على أن المقصود إثبات الوجدانية ، وأنها من لوازم الإلوهية ، أما الإلوهية فغير منكرة ، ولا متنازع فيها . فالله - سبحانه وتعالى - أخبر أنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ينبغي الرهبة إلا منه ، ولا ينبغي العبادة إلا له وحده - سبحانه وتعالى - . هذا هو مقتضى الخشية من الله - سبحانه وتعالى - والرهبة منه ، لا من أحد سواه ، والذين يرهبون الله تعالى بجدهم حيث أمرهم ، ويفتقدونهم حيث نهاهم ، وما ذاك إلا لأنهم يرهبون ويخشون ولا يخشون أحد غيره ، ولا يعبدون سواه .

وبمضى القرآن الكريم في الكلام عن الرهبة والخوف من الله - عز وجل - فيقول : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُنَادُوا عَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٨]. والمعنى : هؤلاء النبيون ليسوا المذكورين في الآية فحسب ، فالذي عنى به من ذرية "آدم" هو "إدريس" ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع "نوح" هو "إبراهيم" والذي عنى به من ذرية "إبراهيم" هو "إسحاق" ويعقوب وإسماعيل ، والذي عنى به من ذرية "إسرائيل" هو "موسى" ، وهارون ، وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم .

قال ابن جرير: ولذلك فرّق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح - عليه السلام - في السفينة ، وهو إدريس ، فإنه جد نوح - عليه السلام - . قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس - عليه السلام - في عمود نسب نوح - عليهما السلام - . وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل ، أخذاً من

حديث الإسراء ، حيث قال في سلامه على النبي - صلى الله عليه وسلم - : " مرحبا بالنبى الصالح ، والأخ الصالح " ، ولم يقل: " والولد الصالح " ، كما قال آدم وإبراهيم - عليهما السلام - .

وعن عبد الله بن محمد : أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه ، فأمرهم أن يقولوا : " لا إله إلا الله " ، ويعملوا ما شاءوا فأبوا ، فأهلكهم الله عز وجل .
ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء ، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُدًى وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

[سورة الأنعام: ٨٣: ٨٧]. إلى أن قال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْتُهُمْ أُقْتَدَ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ [سورة الأنعام: ٩٠]. وقال تعالى: مِنْهُمْ مَّن قَصَّصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ [سورة غافر: ٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي " ص " سجدة ؟

قال : نعم، ثم تلا هذه الآية: " أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْتُهُمْ أُقْتَدَ " ، فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم،
قال: وهو منهم، يعني داود .

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: " إِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا " . أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَّجه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانةً، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة .

"والبُكِّيُّ": جمع بَاكٍ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداءً بهم، واتباعاً لمنوالهم. قال سفيان الثوري، قال: قرأ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء. تلك هى الرهبة والخوف من الله المتمثلة فى السجود مع البكاء ولا يكون ذلك إلا من خاشع متبتل، وخائف منزعج من لقاء الله فى الآخرة، ورهبة من المصير المحتوم وهو اللقاء مع الله - سبحانه وتعالى - فلذلك يخرن سَجُداً وُبُكياً. ويبضى القرآن الكريم فى الحديث عن "الرهبة" من الله - عزوجل - فيقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٨]. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠]. والمعنى: وهم من خشيته وخوفه ورهبته مشفقون على أنفسهم من لقاء ربهم، وطمعاً فى ثوابه وخوفاً من عقابه. وقوله: "وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ" هى مثل قوله - سبحانه وتعالى - : "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ". وقوله تعالى: "وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ". وآيات كثيرة فى القرآن الكريم وردت فى هذا المعنى وفى نفس السورة يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٩]. وهى مثل قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٣٣]. ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الملك: ١٢]. وهم من يوم القيامة خائفون وجئون حيث تنصب الموازين، ويمد الصراط المستقيم، فإما إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وإما إلى نار تحرق الأجساد، وتكوى الجباه وكما تكوى جنوبهم وظهورهم، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها ليدوتوا العذاب، هذا مكمّن رهبتهم وخوفهم

وحشيتهم وإشفاقهم من ربهم - سبحانه وتعالى - . وقوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[سورة الأنبياء: ٩٠]. يعنى : يدعوننا رغباً فيما عندنا من النعيم المقيم، والتلذذ

بالحور العين، وبقبلة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر،

ورهباً مما عندنا من العذاب، ونار الجحيم والماء الذى يشوى الوجوه؛ بئس الشراب

وساءت مرتفقاً. " وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ " . عن ابن عباس - رضى الله عنهما -

قال : " يعنى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية :

خائفين . وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب ، لا يفارقه أبداً. وعن

مجاهد أيضاً " خَاشِعِينَ " . أي: متواضعين . وقال الحسن ، وقتادة ، والضحاك :

" خَاشِعِينَ " . أي: متذللين لله - عز وجل - . وكل هذه الأقوال متقاربة . وعن عبد

الله بن حكيم قال : خطبنا " أبوبكر " - رضى الله عنه - ثم قال: أما بعد ، فإني

أوصيكم بتقوى الله، واثنوا عليه بما هوله أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا

الإلحاف بالمسألة، فإن الله - عز وجل - أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۗ ﴾ .

وحول هذا المعنى - الرهبة من الله - تتحدث هذه الآيات وهى قوله تعالى:

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا

تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى

النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن

يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ [سورة الحج: ١: ٣].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ

الْأَنْعَامِ فَالذِّكْرُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ۗ فَلَهُ اسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٤-٣٥]. ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٤﴾ [سورة الحج: ٥٤].

فى الآية الأولى وهى مطلع السورة ، وهو مطلع عنيف مرهوب رعيب ، ومشهد من مشاهد القيامة ترتجف له القلوب . فيبدأ بالنداء العام الشامل الذى ينتظم الناس جمعاً على اختلاف أجناسهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم فيقول تعالى : "يَأْتِيهَا النَّاسُ" . يدعوهم إلى الخوف من الله : " اتَّقُوا رَبَّكُمْ " ويخوفهم ذلك اليوم العصيب : " إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ " . وهكذا يبدأ بالتهويل المجمل ، وبالتجهيل الذى يلقي ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه زلزلة . وإن الزلزلة " شَيْءٌ عَظِيمٌ " ، من غير تحديد ولا تعريف . ثم يأخذ فى التفصيل . فإذا هو أشد رهبة من التهويل .

إذا هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظروا ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي . وبكل حامل تسقط حملها للهول المرع ينتابها . وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يعنى ليس السكر من شراب شربوه أو خمر احتسوه ، وإنما الذى طير ألباسهم ، وجعلهم مثل السكارى ما انتابهم من الهلع ، والخوف ، والفرع فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، يتبدى السكرى فى نظراتهم الذاهلة ، وفى خطواتهم المترنحة . . مشهد مزدهم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يمتلؤه . والهول الشاخص يُذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حى لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه فى النفوس الأدمية : فى المرضعات الذاهلات عما أرضعن وما تذهل المرضعة عن طفلها وفى فمه ثديها إلا للهول الذى لا يدع بقية من وعي والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى وقوله : " وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " .

يقول "قتادة" - رضى الله عنه - : " فى هذا اليوم تذهل المرزعة عن رضيعها دون فطام ، وتضع الحامل ما فى بطنها غير تمام ". وهذا الذى يحدث ليس من شراب شربوه؛ فطير ألباسهم وذهب بعقولهم ، إنما هو هول وفزع ورهبة يوم القيامة وما يحدث فيه من زلازل وأهوال .

ويقول الله - عزوجل - : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ فَإِنَّهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ وَجِدْفَلَهُ ۗ أَسْلَمُوا وَيَشِرُّ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَجَارِزَاتِنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبَدَنَتِ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ۝

[سورة الحج: ٣٦]. وفى هذه الآية نرى الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله - سبحانه وتعالى - ومن ثم يُعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة والحركة والعودة إلى تلك الوجهة الواحدة ، وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة . وعلى هذا الأساس حُرِّمَ من الذبائح ما أهِّلَ لغير الله به ، ومن الحُكْمِ ذكر الله عليها فكانها تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله تعالى .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ فَإِنَّهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ وَجِدْفَلَهُ ۗ أَسْلَمُوا وَيَشِرُّ الْمُخْبِتِينَ ۝ ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ويعقب بتقرير الوجدانية فى قوله - سبحانه وتعالى - : " فَإِنَّهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ وَجِدْفَلَهُ " ، وبالأمر بالإسلام له وحده . " فَلَهُ ۗ أَسْلَمُوا " . وليس هو إسلام الإجمار والاضطرار ، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : " وَيَشِرُّ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ " . فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . " وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ " . فهم يعبدون الله حق عبادته . " وَجَارِزَاتِنَهُمْ يُنْفِقُونَ " فهم لا يظنون على الله بما فى أيديهم . وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . فهي منبثقة

من العقيدة وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية في شتى الاتجاهات .

ثم يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة الحج: ٥٤: ٥٥]. والمعنى وليعلم أهل العلم أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله تعالى فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من فى قلبه مرض . وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم . ومنقذهم عن الضلالة والغواية ، وتلك هى الرهبة من الله - عز وجل - وخشيته فإذا ما أتقى الله المؤمن أرشده الله إلى الطريق القويم ، وهده إلى الصراط المستقيم . (١)

وما زال القرآن الكريم يرشدنا إلى الأخلاق الفاضلة ، والخلال الكريمة والخصال النبيلة تشدنا للفضيلة ، ومحاربة للرذيلة يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١: ٢]. يعنى هم خاشعون مخبتون لله أذلاء منقادون له ، خائفون من عذابه ، روى الحاكم أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره إلى نحو مسجده ، والمراد موضع سجوده ، والخشوع واجب على المرء فى الصلاة ، وذلك للوجوه التالية :

أولاً : التدبير فيما يقرأ ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [سورة محمد: ٢٤]. والتدبير لا يكون بدون الوقوف على

المعنى ، كما قال تعالى : " وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ مُخْتَلِفاً" والوقوف على عجائب أسرارهِ ، وبديع حكمته وأحكامه .

ثانياً : تذكر الله والرهبنة من وعيده كما قال تعالى : " وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي " ثالثاً : إن المصلى يناجى ربه ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ومن ثم قالوا : " صلاة بلا خشوع ، جسد بلا ربح " . وجمهور العلماء على أن الخشوع ليس شرطاً للخروج من عهدة التكليف ، وأداء الواجب . وإنما هو شرط لحصول الثواب عند الله ، وبلوغ رضوانه .

رابعاً : الإعراض عن اللغو. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٣]. يعنى يعرضون عن كل ما لا يعنينهم ، وكل ساقط أن يلغى مثل الكذب والهزل والسب ، فهم فى صلاتهم معرضون عم كل شيء إلا عن خالقهم رغبة ورهبة .

ويقول الله تعالى أيضا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبَائِهِمْ يَوْمُونَ] ﴿٥٨﴾ [سورة المؤمنون: ٥٨]. والمعنى : إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب الله مشفقون ، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون فى طاعته جادون فى طلب مرضاته ، فهم فى نهاية الخوف من سخطه عاجلاً ، ومن عذابه آجلاً ، ومن ثم يبتعدون عن الآثام والمعاصي . " وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبَائِهِمْ يَوْمُونَ " . يقول: والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدقون . " وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ " يقول: والذين يخلصون لربهم عبادتهم ، فلا يجعلون له فيها لغيره شريكاً لوثن ، ولا لصنم ، ولا يُراءون بها أحداً من خلقه ، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً ، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه .

ويقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٠]. والمعنى : والذين يعطون ما أعطوا ، ويتصدقون بما تصدقوا ، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم ، وألا يقع على الوجه المرضى حين يبعثون ،

ويرجعون إلى ربهم ، وتنكشف الحقائق ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لديه ، وإن قل. قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الزلزلة: ٧:٨]. ويدخل فى قوله تعالى : "يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا" كل حق يلزم إتاؤه ، سواء أكان من حقوق الله مثل " الزكاة ، والكفارة وغيرها " . أم حق من حقوق العباد مثل " اللواتع ، والديون ، والعدل بين الناس " . فمتى فعلوا ذلك وقلوبهم وجلةً من التقصير ، والإخلال بها بنقصان أو غير ، اجتهدوا فى أن يؤفوها حقها حين الأداء .

وسألت " عائشة " - رضى الله عنها - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } . فقالت: أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا يا ابنة الصديق ، ولكن هو الرجل الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى .

ومن الآيات القرآنية التى تحوى الأخلاق الفاضلة وترشد المسلمين إلى التوجه إليها ، والعمل بها وتجعل المسلم يرهب الله ويخشاه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ الَّذِي يَتَّقَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ [سورة النور: ٥٢]. والمعنى : ومن يطع الله ورسوله فيما أمره به ، وترك ما نهىه عنه ، ويخشى الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصي ويتقيه فى مستأنف أموره ، فأولئك الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزين برضاه عنهم يوم القيامة والأمنون من عذابه .

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تدعوا إلى الرهبة ، والخوف من الله هذه الآية ، وهى قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ [سورة السجدة: ١٦]. المعنى: أنهم يتنحون ، ويبتعدون عن مضاجعهم ، وينأون عن فراشهم فلا ينامون راعين

ربهم خوفاً من عذابه ، وطمعاً في رحمته ، ومما رزقناهم من المال ينفقون في وجوه البر والخير ، ويؤدون حقوقه ، التي أوجبها عليهم فيه ، يقول " أنس بن مالك " - رضی اللہ عنہ - : " نزلت فينا معاشر الأنصار ، كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبي - صلى اللہ عليه وسلم - .

وعن معاذ بن جبل - رضی اللہ عنہ - عن النبي - صلى اللہ عليه وسلم - في قوله تعالى " **جُؤِبُهُمَّ عَنِ الْمَضَاجِعِ** " . قال : " هي قيام الرجل أول الليل . ورأى الإمام أحمد عن ابن مسعود - رضی اللہ عنہ - عن النبي - صلى اللہ عليه وسلم - قال : " عجب ربنا من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته ، فيقول اللہ لملائكته : انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبةً فيما عندي وشفقاً مما عندي ، ورجل غزى في سبيل اللہ فانهزم معه أصحابه ، فعلم ما عليه في الانهزم وما له في الرجوع ، فرجع فقاتل حتى أهرق دمه ، فيقول اللہ لملائكته : " انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي وشفقاً مما عندي حتى أهرق دمه " .

وأخرج الحاكم وأبن جرير ، وابن مردويه عن معاذ بن جبل - رضی اللہ عنہ - قال : " كنت مع النبي - صلى اللہ عليه وسلم - في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبي اللہ ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . قال : " لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره اللہ عليه ، تعبد اللہ ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت " . ثم قال : " ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل " . ثم قرأ : " **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** " ، حتى بلغ " **يُنْفِقُونَ** " .

ثم قال : " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ " فقلت : بلى ، يا رسول اللہ .

وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ
وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُبِينًا ﴿٣٦﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥: ٣٦]. قالت " أم سلمة " - رضى الله عنها -
زوج النبى - صلى الله عليه وسلم - قلت للنبى - صلى الله عليه وسلم - :
" يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني ذات
يوم ظهراً إلا نداؤ؛ على المنبر وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى
حجرة من حجرهن، فجلعت سمعي عند الجريد، فإذا هويقول على المنبر: يا أيها
الناس إن الله يقول في كتابه: " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ... إلى قوله: " أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " .

والقنوت هو الطاعة . قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ۖ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا
وَقَائِمًا يَحْذُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ ۗ كُلُّ لَّهُ قٰنِونٌ ﴾ [سورة الروم: ٢٦]. وقال - سبحانه وتعالى - :
﴿ يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٣]
وقوله - سبحانه وتعالى - : " كُلُّ لَّهُ قٰنِونٌ " .

فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهى الإيمان ثم القنوت ناشئ عنهما :
فالصدق صفة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة - رضى الله عنهم - لم تجر عليهم
كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمانة
النفاق ، ومن صدق نجا . عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى
إلى الجنة ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار،
ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال

الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، وسجية الأثبات هي الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة . قال - صلى الله عليه وسلم- : " وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أي : أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهو صدق السجية وثباتها .

" وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ " . الخشوع : السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار والتواضع . والكامل عليه الخوف من الله ومراقبته ، قال - صلى الله عليه وسلم - " اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " . والمراد مراقبة العبد لربه ، وخوفه منه فمتى خلف ، وخشي العبد ربه - سبحانه وتعالى - ، وعلم أنه مطلع عليه فإن لم يكن يرى ربه فإن الله يراه ، وهذا هو مقام المراقبة فعندما يصل العبد إلى هذه المرتبة ، نال ثوابه ورضاه وأمن عذابه ، وناره .

" وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ " . الصدقة : هي الإحسان إلى الناس المحاويع الضعفاء ، الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، وإحسانا إلى خلقه ، وقد ثبت في الصحيحين قال - صلى الله عليه وسلم- : "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" فذكر منهم : " ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " .

ومن معاني الرهبة في القرآن الكريم ما نجده في قوله - سبحانه وتعالى :
 ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧] . والمعنى :
 واذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام وأنعمت عليه بالتحريم والعق من العبودية والإعتاق . يقول بعض المفسرين : " هو " زيد بن حارسة " . كان من سبي الجاهلية ، اشترته السيدة الفضلى " خديجة " ووهبته

لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبناه ، وزوجه ابنة عمه " زينب بنت جحش " - رضى الله عنها - فأمره القرآن أن يمسك زوجته ولا يطلقها ، أن يتقى الله فى أمرها ، ثم يقول القرآن **وَنُحْنِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** يعنى : وتضمرياً محمد - صلى الله عليه وسلم - فى نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها . يقول صاحب التسهيل : " الذي أخفاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر جائز مباح لا إثم فيه ، ولا عتب ولكنه خاف أن يسلب الله عليهم ألسنتهم وينالوا منه فأخفاه حياءً وحشمةً وصيانةً لعرضه . وذلك أنه روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان حريصاً على أن يطلق " زيد " " زينب " ليتزوجها هو - صلى الله عليه وسلم - لقرباتها منه ولحسبها فقال : أمسك عليك زوجك وهو يخفي الحرص عليها خوفاً من كلام الناس لئلا يقولوا تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه وقد كان التبني عادة فى الجاهلية ، وكان المُنَبَّى يرث المُنَبَّى ، و المُنَبَّى يرث المُنَبَّى فأراد الله أن يهدم هذه القاعدة وذلك بزواج سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - من " زينب بنت جحش " .

ونسب " زيد " إلى أبيه فقيلاً " زيد بن حارثة " بدلاً من " زيد بن محمد " . يقول الله تعالى : ﴿ **أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾ [سورة الأحزاب: ٥] . فالذي أخفاه - صلى الله عليه وسلم - هو إرادة تزوجها فأبدي الله ذلك بأن قضى له بتزويجها . لإبطال حكم التبني ، فقال الله له تهاب الناس وتخشاهم أن يقولوا تزوج " محمد " حليلة ابنه والله أحق أن تخشاه وحده ، أن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوج بها بعد أن يطلقها " زيد بن حارثة " .

يقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - : " خشى أن يقول المنافقون تزوج " محمد " - صلى الله عليه وسلم - حليلة ابنه فلما قضى " زيد " حاجته من

نكاحها وطلقها وزجناها إياك " يا محمد " . وهذا نص صريح قاطع على أن الذي أخفاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو إرادة الزواج بها بعد تطليقها من " زيد " تنفيذاً لأمر الوحي ليس كما زعم الأفاكون فقد جعلناها زوجةً لك ، يقول المفسرون : " إن الذي تولى تزويجها هو الله - سبحانه وتعالى - ، فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلا إذن ، ولا عقد ، ولا مهر ، ولا شهود ، كان ذلك خصوصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

روى البخاري عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : " رضى الله تعالى عنها كانت تفخر على أزواج النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - تقول : " زوجكن أهاليكن وزيجني الله تعالى من فوق سبع سماوات " . وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : كانت تقول للنبي - عليه الصلاة والسلام - إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن إن جدِّي وجدَّكَ واحد ، وإني أنكحك الله إياي من السماء ، وإن السفير لجبريل - عليه السلام - ولعلها أرادت سفارته - عليه السلام - بين الله تعالى وبين رسوله وإلا فالسفير بينه - عليه الصلاة والسلام - وبينها كان زيدا .

والحكمة من هذا الزواج بينها الله تعالى في قوله : " زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا " والمعنى : لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة ، وتآثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني ، إذا لم يبق لأزواجهن حاجةً فيهن . يقول ابن الجوزي : " والمعنى : زوجناك " زينب " وهى امرأة " زيد " الذى تبنيه " لكى لا يظن إن امرأة المتبنى لا يحل نكاحها ، لقوله " وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا " أي : وكان أمر الله لك ، ووحيه إليك بتزويج " زينب " مقدراً ، محتوماً ، كائناً لا محالة . ولما نفى

الحرص عن المؤمنين ، نفى الحرص عن سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التكريم والتشريف . (١)

وفى معنى الرهبة يقول - سبحانه وتعالى - أيضا : ﴿ الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رَسَلَتِ اللَّهُ وَيَحْشَوْنَهُ، وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٩]. والمعنى : هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد ، وجعلت لك قدوة بهم هم الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه ، ويخافون الله وحده ، ولا يخافون أحد سواه فاقتردهم يا محمد ، ويكفى أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال ، فينبغي إلا ترهب غيره ، ولا تخشى سواه ... " وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا " .

وعن الرهبة من الله - عز وجل - وخشيته والخوف منه تحدثنا هذه الآيات من سورة " فاطر " فيقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة فاطر: ١٨]. والمعنى : " وحقيقة فردية التبعية والجزاء ذات أثر حاسم فى الشعور الاخلاقى ، وفى السلوك العملي سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزى بعمله ، لا يؤخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوى فى يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب مع التخلي عن كل أمر خادع فى أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . كما أنه فى الوقت ذاته عامل مطمئن فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجزيرة الجماعة فيطيش ويبأس من جدوى عمله الفردي الطيب . ما دام قد أدى واجبه فى النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله لا يحاسب الناس جملةً إنما يحاسبهم فرداً فرداً كل على عمله وفى حدود واجبه إنه مشهد القافلة كل فيها يحمل أثقاله ، ويمضى فى طريقه حتى

١- تفسير المراعى ج ٦ ، ص ٥ ، ٣٢ ، ٣٤ .

يقف أمام الميزن والوزن . " قَرَّبْتُكُمْ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ " . فهؤلاء هم الذين يفلح فيهم الإنذار . هؤلاء الذين يرهبون ربهم ويخشونه ، ولم يشاهدوه . ويقيمون الصلاة ليتصلوا بربهم ويعبدوه . فلا عليك ممن لا يخشى الله ، ولا يقيم الصلاة . " وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ " فهو لا يتزكى لك ولا لغيرك والتزكية هى طهارة النفس ، وصفاءها قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ ﴾ [سورة الشمس : ٩] . " وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ " والمرجع وهو المحاسب والمجازى فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيء ، ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره؛ ممن يميلون أو ينسون أو يهملون .

وفى معنى الرهبة والخشية من الله يقول الله تعالى أيضا : ﴿ وَمَنْ أُنذِرَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ ﴾ [سورة فاطر : ٢٨] . والمعنى : يقول الإمام الشهيد سيد قطب : " وهذه الجولة قراءات فى كتاب الكون وفى الكتاب المنزل . قراءات فى كتاب الكون فى صحائفه المعجبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس . الثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة . . هذه اللقطة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة فى كتاب الكون المفتوح . . وقراءات فى الكتاب المنزل وما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة . وتوريت هذا الكتاب للأمة المسلمة . ودرجات الوارثين . وما ينتظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين ؛ ومشهدهم فى دار النعيم . ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم . وتختم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور . .

ويقول ابن كثير : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " . أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم

والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر. وعن ابن عباس في قوله تعالى: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}** قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وهو تفسير قوله تعالى: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**. إن الله غالب على كل شيء بعظمته، غفور لمن تاب وأتاب من عباده **{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}**.

ويقول الله - عز وجل - في معنى الرهبة من سورة "يس": **{إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}** [سورة يس: ١١]. والمعنى: إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه الأحكام، وخشي عقاب الله قبل حلوله، ومعاقبه وأهواله، فإنه - سبحانه وتعالى - عظيم الرحمة أليم العذاب مثل ما قال - سبحانه وتعالى -: **{نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}** [سورة الحجر: ٤٩: ٥٠] **{وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}** [سورة الحجر: ٤٩: ٥٠].

[سورة الحجر: ٤٩: ٥٠] فبشر هذا الذي اتبع أحكام الدين، وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من الزلات، وأجر كريم، ونعيم مقيم لا يستطاع وصفه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومثلها قوله - سبحانه وتعالى -: **{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ}** [سورة الملك: ١٢].

هذه هي الرهبة من الله - عز وجل -، ونرى القرآن الكريم يؤكد الخشية من الله وذلك بقوله - سبحانه وتعالى -: **{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ}** [سورة يس: ١٢]. وفي التفسير القرآني للقرآن: إنما ينفع النذر، والعظات، من استمع إلى آيات الله فاتبعها، وآمن بها، وخاف ربه، وعمل ليوم القيامة، مصداقاً بما وعد به وإن لم يره، وعلى هذا فليوجه النبي - صلى الله عليه وسلم - وجهه كله إلى المؤمنين وليعطيهم جهده كله ففي هذا الميدان ينثر عمله، ويقع موقعه من أهله. وفي قصر الإنذار على من أتبع الذِّكْرَ وخشي الرحمن بالغيب في هذا إشارة إلى الاستعداد

القطري للإيمان عند هؤلاء المنذرين ، وأنهم بفطرتهم السليمة كانوا والإيمان الذي يدعون إليه على موعد ، بل إنهم في انتظار له وشوق إليه ، قبل أن يطلع عليهم . وفي جعل خشية للرحمن إشارة إلى أنها خشية إجلال وتعظيم ، خشية حب وتوقير إنها خشية الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ . هو ما يلقي به النبي - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء المؤمنون الذين استجابوا له بمجرد أن دعاهم إلى الله . ويقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ، " وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ " . أي : حيث لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ، " فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ " أي : لذنوبه ، " وَأَجْرٍ كَرِيمٍ " . أي : كبير واسع حسن جميل ، كما قال : " إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ " .

ثم قال تعالى : " إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَةَ " . أي : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب مَنْ يَشَاءُ من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحديد: ١٧] .

ومجمل القول : أن النذر تنفع وتفيد المؤمنين الذين يصدقون بالقرآن ويخشون ربهم بالغيب ، والإيمان بالغيب من أولى صفات المتقين . يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ الرَّ ١ ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ ٢ ﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿ ٣ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿ ٤ ﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ ٥ ﴾ [سورة البقرة: ٥] ومن معاني الرهبة من الله وخشيته تتحدث هذه الآيات من سورة الزمر فيقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَجْعَادِ فَاتَّقُونَ ﴿ ١٦ ﴾ ﴾ [سورة الزمر: ١٦] . ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا

مُتَشَبِّهًا مَثَابِي نَقَشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
هَادٍ ﴿٢٣﴾ [سورة الرُّم: ٢٣]. هذا الذى يلقاه أهل الضلال فى الآخرة تغشاهم
النار، وتشتمل عليهم من فوقهم، ومن تحتهم.

كما يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ
عَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٤١]. والظلل جمع " ظلّة
" وهى ما يستظل به، وفى التعبير عن النار " بالظلل " مع أن " الظلل " يتقى بها
وهج الشمس، إشارةً إلى أن النار المسلطة على أهل النار لا تتقى هناك إلا بنار من
النار. إذا استصرخ أهلها، كان الصرير لهم بعضاً منها وقطعاً من شواظها، وفى
هذا بلاء إلى بلاء، وعذاب إلى عذاب حيث تتضاعف البلوى بهذا الطارق الجديد،
الذى كان موضع أمل ورجاء، وفى هذا يقول المتنبي :

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

والظلل التى من تحت أهل النار هى نار، يمشون على شواظها، فلا
ينتقلون إلا من نار إلى نار، فحيثما وضعوا أرجلهم كانت النار تحتها، فلا ظل
يمشون إلا هذه النار الجامحة التى يضعون أقدامهم عليها " ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ
عِبَادَهُ " . يعنى : هذا العرض لأهوال جهنم وما يلقى، فسها أهلها من العذاب الأليم،
هو تحذير من الله لعباده، وتخويف لهم من هذا المورد الويبيل، وهم فى هذه الدنيا
ليأخذوا لذلك حذرهم وليعملوا على توقيه، وذلك يكون " بالإيمان بالله " و" اتقاء
محارمه " . ولهذا جاء قوله تعالى يِعْبَادِ فَاتَّقُونِ. تعقيباً على هذا التحذير، وإفاتاً
إلى طريق السلامة والنجاة من هذا البلاء الراصد، وذلك بتقوى الله فالتقوى هى
مركب النجاة من هذا الطوفان الجهنمي الذى يحتوى بأواجه المتلاطمة كل من لم
يكن فى هذا المركب !! .

وفى قوله تعالى "يَعْبَادِ". نداء من رب كريم إلى عباده ، ليأخذوا طريقهم إليه - سبحانه وتعالى - ، حيث الأمن والسلامة والنعيم والرضوان . و" الفاء " فى قوله - سبحانه وتعالى - " فَأَتَقُونَ " هى " فاء الفصيح والتفريع وهى تفصح عن كلام محذوف أى قد بينت لكم ما ينتظر الذين لا يبنون بى ، ولا يتقون محارمى من بلاءٍ شديد ، وعذابٍ أليم ، فاتقون أنتم حتى لا تقعوا تحت طائلة نقمى وعذابى.

وفى نفس المعنى من الرهبة من الله - سبحانه وتعالى - قول الحق تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۗ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزمر: ٢٣]. والمعنى: إن الله أنزل أحسن الحديث " قرآنا كريما " يشبه بعضه بعضا فى الصدق، والبيان ، والوعظ ، والحكمة ، وكما تتشابه أجزاء الماء والهواء ، وأجزاء النبات والزهر، تتنى وتردد قصصه ، وأنباؤه ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده . إذا تليت منه آيات العذاب اقشعرت الجلود ووجلت القلوب ، وإذا تليت آيات الرحمة ، والوعد ، لأنت الجلود ، وسكنت القلوب ، وأطمئنت النفوس .

يقول الزجاج : " إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله . وذلك الكتاب يهدى به الله من يشاء ، ويوفقه للإيمان ، ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن ، والتصديق به ، فما له من مخرج من الضلالة ولا موفق لسلك طريق الحق " .

وفى معنى الرهبة من الله يقول الله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿سورة الرحمن: ٤٦﴾﴾ . والمعنى : وللعبد الذى يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب . "جَنَّاتٍ" جنة لسكنه ، وجنة لأزواجه وخدمه ، كما هى حال " الملوك " فى الحياة الدنيا حيث يكون له قصر ولأزواجه قصر آخر . يقول القرطبى - رحمه الله تعالى :

" إنما كانتا اثنتين ليضعاف له السرور، بالتنقل من جهة إلى جهة . وقيل نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - خاصة حين ذكر ذات يوم الجنة حين أنزلت والنار حين برزت ، وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه فسأل عنه فأخبر أنه من غير حل فاستقاه ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينظر إليه فقال رحمك الله لقد أنزلت فيك آيةً وتلا عليه هذه الآية .

ويقول الزمخشري : " جنةٌ لعقيدته وجنةٌ لعمله ، أو جنةٌ لفعل الطاعات وجنةٌ لترك المعاصي ، أو جنةٌ يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه ، أو إحداهما روحانية والأخرى جسمانية ، ولا يخفى أن الصفات الآتية ظاهرةٌ في الجسمانية . وفي الحديث : " جنتان من فضة ، أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " . ويقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - لقوله تعالى - : " وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ " ، فقلت : وإن زنى أو سرق؟

فقال : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ،

فقلت : وإن زنى وإن سرق؟

فقال : " وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ " . فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ . فقال : " وإن رغم أنف أبي الدرداء " .^(١)

وهذه الآية عامةٌ في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا وتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنَّ آيَةَ الْآلَاءِ رَبِّكُمْ تَكْرِيماً ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الرحمن: ٤٦: ٤٧].

ويقول الفخر الرازي : " لما قال تعالى في حق المجرم إنه يطوف بين نار وبين حميم آن ، وهما نوعان ذكر لغيره وهو الخائف جنتين في مقابلة ما ذكر في حق المجرم ، لكنه ذكر هناك أنهم يطوفون فيفارقون عذاباً ويقعون في الآخر ، ولم يقل :

ها هنا يطوفون بين الجنتين بل جعلهم الله تعالى ملوكاً وهم فيها يطاق عليهم ولا يطاق بهم احتراماً لهم وإكراماً في حقهم ، وقد ذكرنا في قوله تعالى : " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ " . وقوله : " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ " . أنه تعالى ذكر الجنة والجنات ، فهي لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينهما كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة ، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات، ولاشتمالها على ما تتلذذ به الروح والجسم كأنها جنتان ، فالكل عائد إلى صفة مدح . (١)

وفى معنى الرهبة من الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد: ١٦]. والمعنى : أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله ؟ ، ولما نزلت من آيات القرآن المدين ؟ ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله " التوراة " والإنجيل فطال عليهم الزمن الذى بينهم وبين أنبيائهم حتى صلبت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - : " مالوا إلى الدنيا، وأعرضوا عن مواضع القرآن " . ويقول ابن حبان : " صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة " . والغرض هو أن الله - سبحانه وتعالى - يحذر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حيث قَسَتْ قُلُوبُهُمْ لما طال عليهم الزمان وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله ، رافضون لتعاليم دينهم ، من فرط قسوة قلوبهم . يقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - : " نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تناول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله ، واتخذوا أحبارهم

١- تفسير المراعى ج ٨ ، ص ١٤٧ ، ١٦١ .

ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظةً، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد (١).

ومن معاني الرهبة من الله في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر: ٢١]. والمعنى لو خلقنا في الجبل عقلاً وتمييزاً كما خلقنا للإنسان ، وأنزلنا عليه القرآن بوعده ووعيده ، لخضع وخضع وتشقق خوفاً من الله تعالى ، ومهابةً له . وهذا تصوير لعظمة قدر القرآن ، وقوة تأثيره ، وأنه بحيث لو خوطب به الجبل على شدته وصلابته . لرأيته ذليلاً متصدعاً من خشية الله . والمراد منه توبيخ الإنسان بأنه لا يخضع عند تلاوة القرآن ، ودناءة حال الإنسان . ويقول صاحب " البحر المحيط " : " والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لخضع وتصدع . وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر . وتلك الأمثال نُفِصَلْهَا ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون . (٢)

ويميض القرآن الكريم في الكلام على الرهبة من الله – سبحانه وتعالى – فيقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الملك: ١٢]. والمعنى : " إن الذين يخافون مقام ربهم فيما بينهم وبينه إذا كانوا غائبين عن أعين الناس ، فيكفون أنفسهم عن المعاصي ، ويقومون بطاعته حيث لا يراهم إلا هو ، مراقبين له في السر والعلن ، واضعين نصب أعينهم ما جاء في الحديث : " أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " . يكفر عنهم ما ألموا به من الذنوب والآثام ،

١- التفسير القرآني لعبد الكريم الخطيب . ط . دار الفكر ج ٦ ، ص ٩١٠ ، وما بعدها .

2- حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ج ٣ ، ص ٤٧٩ .

ويجزئهم جزيل الثواب ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كفاء ما أسلفوا فى الأيام الخالية .

وقد ورد فى الحديث : " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابُّ نَشَأً فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَخَابَا فِي اللَّهِ اجْتِمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ طَلَبْتُهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ . وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » . وذكر منهم رجل قال انى أخاف الله ، هذه هى الرهبة من الله والخوف منه وخشيته حتى يفوز برضاه ، وينعم فى مثواه ، ويفوز بالجنة فى أخراه . (١)

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - فى نفس المعنى وهو الرهبة من الله : ﴿ قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۗ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِيَ ۗ (١٩) فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى ۗ (٢٠) ﴾ [سورة النازعات: ١٨: ٢٠] . والمعنى : فقل له يا " موسى " - عليك السلام - : هل ترغب فى أن تطهر نفسك من الآثام التى أنغمست فيها ، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير ، وتبعد عما أنت فيه من اجترأح السيئات ، وارتكاب المناكر ، واقتراف الآثام ، وتخشى عاقبة مخالفة ربك - سبحانه وتعالى - ، حتى تأمن من عاقبة ، إذا أدبت ما ألزمتك به من فرائضه ، واجتنبت ما نهاك عنه من معاصيه . ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان ، ولم يقنع بما أدلى إليه " موسى " - عليه السلام - من حجة فاضطر إلى أن يظهر له دليلاً يراه ويشاهده فقال تعالى : ﴿ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَى ۗ (١٩) ﴾ . لما لم يقنع بما أدلى إليه موسى من حجة ودليل أظهر له آية يراها بعينه ، وهو " انقلاب العِصَاة " . ومع ذلك كذب الداعي ، وعصى سلطان البرهان ، وأظهر تمرده عليه . يقول تعالى : ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۗ (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ ۗ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى ۗ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۗ (٢٤) ﴾ [سورة النازعات: ٢١: ٢٤] وذلك لأنه لم يرهب الله

1- تفسير المراعى ج ١٠ ، ص ١٣ - ١٤ .

- سبحانه وتعالى - . ولو أنه كان يرهبه ما عصاه ، وما خالفه خاصة بعد الدليل الذى ساقه إليه ، ورآه بعينه ، وهو انقلاب العصاحية فهذا يعد دليل للإقناع ، وحجة للرد ، وبرهان للتوضيح والبيان ليرجع عن غِيِّهِ ، ويثيب إلى رشده ، ويقلق عن ضلاله ؟ (١)

ويستمر القرآن الكريم فى الكلام عن الرهبة من الله والخوف منه وخشيته فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۗ ﴾ [سورة النازعات: ٤٠ : ٤١] . والمعنى : وأما من خاف عظمة ربه وجلاله ، وخاف مقامه بين يدي ربه يوم الحساب ، لعلمه ويقينه بالمبدأ والميعاد وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم ، وكفها عن الشهوات ، والجري وراء الملذات وارتكاب المناكر ، واقتراف الآثام ، واجترأ السيئات التى تؤدى بالنفس إلى الجحيم ودخول النار وعقاب الله له فى الدار الآخرة فإن جزؤه الجنة لأنه كبح جماح نفسه ونهاها عن الهوى فجزؤه حينئذ " فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ " . فهنيئاً له ولأمثاله من المؤمنين الذين يخشون ربهم بالغيب ويرهبونه فى السر والعلن . وهذه الآيات الكريمة هى " الميزن الدقيق " لمعرفة الإنسان نفسه هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ . وهل هو من الشهداء أم من الأشقياء ؟ . فمن طغى وبغى ، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه ومولاه ، فهو الشقي المعذب بالجحيم ، ومن أطاع الله واتقاه ، وسارع إلى مِرْضَاةِ ربه فى عُلَاة ، ونهى النفس عما تحبه وتهواه ، فهو السعيد فى دنياه والفائز فى آخراه ، فيجب على الإنسان أن يضع نفسه فى الميزن .

وَيُرَوَّى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخْفُ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الثُّنْبَا وَيُرَوَّى

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ .

وفى المعنى نفسه وهو الخِشْيَةُ والرهبية من الله - عزوجل - يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿ ٨ ﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿ ٩ ﴾ ﴾ [سورة عبس: ٨: ٩]. والمعنى : وأما من جاءك يسعى مسرعاً فى طلب الهداية والقرب من ربه ، وهو يخشاه ، ويحذر الوقوع فى الغواية فأنت عنه تلهى ، وتتغافل عن إجابته لمطلبه . وهو عتاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - فى سيدنا " عبد الله بن أم مكتوم " - رضى الله عنه - وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآيات يكرم " ابن أم مكتوم " ويقبل عليه ويتفقده ويقول له إذا رآه : " أهلاً بمن عاتبني فيه ربى " . ويسأله : هل لك حاجة ؟ . وهذا تكريم لسيدنا " عبد الله بن أم مكتوم " - رضى الله عنه - من الله - سبحانه وتعالى - ، وأيضاً تكريم له من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وعبد الله بن أم مكتوم من جملة الصحابة الذين أنزل الله فيهم قرآنا .

وفى الرهبية من الله أيضاً يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ سَيَذَرُكَ مِنْ يَخْشَى ﴿ ١٠ ﴾ ﴾ [سورة الأعلى: ١٠]. والمعنى : سينتفع بهذه الذكرى وتلك الموعظة من يخاف الله - سبحانه وتعالى - . ويقول المراعى فى تفسيره : " إنما ينتفع بتذكيرك من يخاف الله ، ويخاف عقابه ، لأنه هو الذى يتأمل فى كل ما تذكره له ، فيتبين له وجه الصواب ، ويظهر له سبيل الحق الذى يجب التعول عليه . وفى التعبير " سيذكر " إيماء إلى أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بلغ حداً من الوضوح لا يحتاج معه إلا إلى التذكير فحسب ، وإنما الذى يحول بينهم وبين إتباعه ، واقتفاء آثاره هو تقليد الآباء والأجداد فكأنهم عرفوه ، واستيقنوا صحته ، ثم زالت هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آباؤهم من قبل . (١)

١- البحر المحيط ج ٨ ، ص ٤٥٩ .

ومن معاني الرهبة ما نجده فى هذه الآية وهى قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [سورة البينة: ٨]. والمعنى إن ثوابهم عند ربهم فى الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ، وهذا الثواب هو: جنات تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ماكتفين فيها أبدا ، لا يموتون ولا يخرجون منها وهم فى نعيم دائم لا ينقطع . " رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ." بما قدموا فى الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات ، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات وذلك الجزاء ، والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه ، وانتهى عن المعصية .

ويقول المراعى فى تفسيره : " هؤلاء يجازيهم ربهم بجنات يقيمون فيها أبدا ، وفيها من اللذائذ ما هو أكل وأوفر من لذات الدنيا وعلينا أن نؤمن بالجنة ولا نبحث عن حقيقتها ، ولا أين موضعها ولا كيف تتمتع فيها ، فإن علم ذلك عند ربنا لا يعلمه إلا هو ، فهو من علم الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، ثم ذكر أسباب الجزاء فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ " يعنى : " إنهم حازوا رضا الله بالتزُّم حدود شريعته ، محمونا مغبة أعمالهم ، ونالوا ما يرصدهم فى دنياهم وأخرتهم ، وهذا الجزاء الحسن إنما يكن لمن ملأت قلبه الرهبة والخشية ، والخوف من ربه - سبحانه وتعالى - .

وفى ذلك تحذير من خشية غير الله ، وتنفير من إشراك غيره به فى جميع الأعمال ، كما أن فيه ترغيباً فى تذكر الله ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصاً إلى أن فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات مثل " الصلاة " ، والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفى فى نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء ، لأن الخشية لم تصل قلوبهم ، ولم تهذب

نفوسهم . نسال الله أن يطهر قلوبنا ، وينير بصائرنا حتى لا يذهب سواه ، ولا يخشى إلا إياه . والحمد لله رب العالمين . (١)

ومن الأخلاق القرآنية " معاداة الشيطان " فيبين القرآن الكريم عداوة الشيطان للإنسان وأنه يضلّه ويهديه إلى عذاب القبر ، وذلك بتدليل طرائق الغواية ، وتيسير سبل الشر والفساد فى الأرض بغير الحق ويصدهم عن سبيل الله ، والطريق المستقيم فيقول الله سبحانه ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة فاطر: ٦]. فبعد أن بين الله - سبحانه وتعالى - سورة فاطر الأصل الأول وهو " التوحيد " عنى بذكر الأصل الثاني وهو الرسالة وسئل رسوله - عليه الصلاة والسلام - على تكذيب قومه له ، وذلك ببيان أنه لم يكن بدعاً من الرسل فى هذا التكذيب فقد كذب رسل من قبله فعليه أن يتأسى بهم ، ويصر على أذاهم ، ثم يذكر الأصل الثالث وهو " البعث " والنشور مع بيان أنه حق لا ريب فيه ، وأنه لا ينبغي أبداً قبول وساوس الشيطان ، فإنه عدو لبنى آدم ، ولا يرشدهم إلا إلى اقتراف الذنوب ، وارتكاب المعاصي ، واجترأ السيئات التى تؤدى بهم إلى عذاب النار ، وحرمانهم من الفوز برضوان الله تعالى وبئس المصير . فإن الشيطان قد غالبهم بعداوتة ، وذلك بوساوسه ، وتزيين القبح لهم حُسناً . " أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً " . فمطلوب منهم معاداته ، ومخالفته فيما يدعوا ، لهم من القبح والمنكر ، ودعوته لهم إلى الغواية والضلال .

فغرضه من هذا إيقاعهم فى الشهوات ، وإغراقهم فى الملذات وإضلالهم وإلقاؤهم فى العذاب الدائم من حيث لا يشعرون . فهم أى " الشياطين " عدو لدود ، وعداوتة قديمة ، فعادوه كما يعاديكم ومعاداته إنما تكون بمخالفته فيما يأمرهم به من منكر فلا تطيعوه ، وكونوا على حذر منه .

١- صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ٥٨٨ - ٥٨٩

□ تفسير المراعى ج ١٠ ، ص ٢١٦ - ١٢٧

يقول بعض العارفين بالله - سبحانه وتعالى - : " عجباً لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته " . إنما غرضه أن يقذف بأتباعه فى نار جهنم المستعرة التى تشوى الوجوه ، ﴿ وَقِيلَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ [سورة الكهف: ٢٩] . فإنها تشوى الوجوه والجلود . لا هدف للشيطان إلا هذا . فهل يليق بمسلم عاقل أن يستجيب لنداء الشيطان ، وبغضب ربه الرحمن ؟ !! .

يقول القرطبي : " إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين فى نار جهنم التى توقد على أهلها " . ويقول " الزمخشري " : " إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً بطاعة الله ولا تطيعوه ، إنما يدعو أتباعه فى الكفر ليكونوا فى النار الشديد . فاتخذوه عدواً فى عقائدكم ، وأفعالكم ، وكونوا على حذر منه فى جميع أحوالكم ، وكونوا متعدين لعداوته عن صميم قلب ، وإذا فعلتم فعلاً ففطنوا له فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ، ويزين لكم القبائح .

ويقول الإمام القشيري : " والشيطان لا يفتر فى عداوتك ، فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة فببزن لك عدوك ؛ فإنه أبداً متمكن لك . { إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ } ، وحزبه هم المعرضون عن الله ، المشتغلون بغير الله ، والغافلون عن الله . ودليل هذا الخطاب : إن الشيطان عدوكم فأبغضوه واتخذوه عدواً ، وأنا وليكم . وحبیبكم فأحبوني وارضوا بي حبیباً .

وفى سورة " يس " : يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ [سورة يس: ٦٠: ٦١] . والمعنى : ألم آمركم يا بني آدم على ألسن رسلي أنكم لا تطيعوا الشيطان لأنه عدوكم بين العداوة ووضوح الكراهية ، ووحدوني وأطيعوني والعللة فى تقديم " النهى " على " الأمر " لأن حق التخلية هو

التقديم على تحلية . كما فى كلمة " التوحيد " وليتصل به قوله : " هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " . فإنه إشارة إلى عبادته التى هى عبارة عن " التوحيد والإسلام " . وقوله تعالى : " إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ " . تعليل لوجوب الانتهاء . ويكرر الوصية فى هذه الآية قائلاً للناس أجمعين : ألم أوصيكم بالأدلة الحاسمة وبما منحت من العقول الفاهمة ، وبعثت من الرسل - عليهم السلام - وأنزلت من الكتب بياناً للطريق الذى يأخذ بأيديكم إلى النجاة وذلك بترك الطاعة للشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتي ومخالفةً أخرى ، ولقد كان لكم فيمن سبقكم العبرة والعظة لو كنتم تعتبرون وتتعتون .

وفى سورة " الزخرف " يقول المولى - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَا يَصُدَّتْكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الزُّخْرُفُ : ٦٢] . يقول العلامة "ابن كثير" - رضي الله عنه - : " ولا يصدنكم الشيطان عن إتباع الحق إنه لكم عدو مبين " والمراد : أن عداوته ظاهرةً وواضحةً كوضوح الشمس فى رابعة النهار . فالمراد أنتم لا تغتروا بوساوس الشيطان ، واحذروا أن يصدكم عن إتباع الحق ، فإنه لكم عدو مبين ظاهر العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور . فمن الأخلاق القرآنية أن يحذرا المسلم الشيطان ووساوسه حتى لا يغرب به ، ويجعله من أصحاب النار وليعاذ بالله تعالى من شر النار ، وسوء المنقلب ، فعلى المسلم التحلي بأخلاق القرآن الكريم وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - فيحذر الشيطان ووساوسه فى كل أمر من أمور ، وفى كل عمل من أعماله فى هذه الحياة التى تعج بالفتن والمآرب ^(١) .

١- صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ١٦٣ .

الإِخْلَاصُ

إن البواعث التي تسوق المرء إلى العمل ، وتدفعه إلى إجادته وتُعْزِيه بتحمل التعب فيه ، أو بذل الكثير من أجله ، كثرة كاثرة ومنها ، القربى الذي يكاد يرى مع العمل ، ومنها الغامض الذي يختفي في أعماق النفس . والغرائز البشرية المعروفة ، وهى قواعد السلوك العام . والإسلام يراقب بعناية فائقة ما يقارن أعمال النفس من نيات ، وما يلابسها من عواطف ولكن الإسلام لا يهتم إلا بالإخلاص فى كل هذه الأعمال وتلك النيات ، فلا يعتد الإسلام بالعمل إلا إذا كان خالصاً لوجهه ، وله وحده .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - فى هذا المعنى : ﴿ إِنَّمَا نُنْطِقُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا نُشْكُرُكُمْ ﴾ [سورة الإنسان: ٩]. والمعنى : فمن لا نمن عليكم ، ولا نتوقع منكم جزاءً ولا مكافأة ، ولا غيرها مما ينقص الأجر ، وقد كانت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر " - رضى الله عنها - تبتعث الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ثم تسأل المبعوث بالصدقة فإن ذكر دعاء دعت عليه ، وذلك ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله ، ثم يؤكد القرآن هذا المعنى ويوضحه بقوله تعالى : " لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا نُشْكُرُكُمْ " . يعنى لا نطلب منكم مجازاة تكافؤنا بها ، ولا أن تشكرونا لدى الناس . يقول " مجاهد وسعيد بن جبير " - رضى الله عنهما : " أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب . وذلك كله مداره الإخلاص خوف يوم القيامة ، ولذلك أشار القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴾ [سورة الإنسان: ١٠] أي : إنما نعمل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه ، فى اليوم العبوس القمطيرين . وعن ابن عباس : { عَبُوسًا } ضيقاً ، { قَطَطِيرًا } طويلاً . وقال عكرمة وغيره ، عنه ، فى قوله : { يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا } أي : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل

الْقَطْرَانِ. وقال مجاهد: { عَبُوسًا } العابس الشفتين، { قَطْرِيرًا } قال: تقبيض الوجهِ بالبُسُور. وقال سعيد بن جبیر، وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، { قَطْرِيرًا } تقليص الجبين وما بين العينين، من الهول.

وفى هذا المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۚ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝۲۱ ﴾ [سورة الليل: ٢١]. والمعنى : إن الأتقى هو الذى ينفق أمواله فى وجوه البرّ طالباً بذلك طهارة نفسه ، وقربها من ربه لا مريداً بذلك رياءً ولا سمعه ، ولا طالباً مدح الناس له فإن ذلك لون من ألوان النفاق الذى يبطل العمل ، ويذهب بالثواب مهما أتعب نفسه وأجهدّها، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، ولا يقصد بإنفاقه المال مكافآت أحد على نعمة كان قد أسلفها ، ولا جزء معروف كان قد تقدم به إليه .

ويؤكد به بقوله تعالى : " إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ " . يعنى : إنه يفعل ذلك قاصداً رضا ربه طالباً ثوابه وحده ، ولسوف يرضيه ربه فى الآخرة بثوابه ، وعظيم جزئه والتعبير بقوله تعالى : " وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ " . إيماءً إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد منزلة الرضا الالهى ، ولتصحيح إتجاهات القلب ، وضمان تجرده من الأهواء يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَّا نَوَىٰ ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا ، فَهَجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " (١) . فالهجرة التى تكون لله غير هجرة المسافر لغرض من الأغراض فالذين تركوا " مكة " مهاجرين إلى " الجنة " أو المدينة فراراً بعبديتهم غير الذى يهاجر لغرض دينوي مثل التجارة أو الزواج ، أو غير ذلك . فالرجل الذى يعاشر امرأة بغية العفاف ، وصون دينه له فى ذلك أجر كبير ، قال - صلى الله عليه وسلم - فى جزء من حديث طويل : " فى بضع أحدكم صدقة .

قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيه أجر ؟ .
 فقال : أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه فيه وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال
 كان له أجر (١) .

وما يطعمه المسلم لزوجته ، وأولاده له مثوبةً بنية الخير التي تقارنه . عن
 سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال مرّضت بمكةً مرضاً ، فأشفيت منه
 على الموت ، فأتاني النبي - صلى الله عليه وسلم - يعوذني فقلت يا رسول الله
 إن لي مالا كثيراً ، وليس يرثني إلا ابنتي ، أفأتصدق بثلثي مالي قال « لا » . قال
 قلت فالشطرُ قال « لا » . قلت الثلثُ قال « الثلثُ كبيرٌ إنك إن تركتَ ولدكَ أغنياءَ
 خيراً من أن تتركهم عالةً يتكفّفون الناسَ ، وإنك لن تُنفقَ نفقةً إلا أُجرتَ عليها ،
 حتى اللقمة ترفعها إلي في امرأتك » . فقلت يا رسول الله أأخلف عن هجرتي فقال
 « لن تخلفَ بعدي فتعملَ عملاً تريدُ به وجهَ الله ، إلا ازددتُ به رفعةً
 ودرجةً ، ولعلَّ أن تخلفَ بعدي حتى يَنْتفعَ بك أقوامٌ ويضرُ بك آخرونَ ، لكن البائسُ
 سعدُ ابنُ خولةٍ يرثي له رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أن مات بمكةً » (٢) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : " إنك ما أطعمتَ زوجتكَ فهو لك صدقةً ،
 وما أطعمتَ ولدكَ فهو لك صدقةً ، وما أطعمتَ خادمكَ فهو لك صدقةً ، وما أطعمتَ
 نفسكَ فهو لك صدقةً " (٣) . والمرء ما دام قد أسلم لله ، وأخلص نيته ، فإن حركاته
 وسكناته ، ونوماته ويقظاته تعد خطوات إلى مرضات الله .

وقد حدث في غزوة " العسرة " أن تقدم إلى رسول الله - صلى الله عليه
 وسلم - رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه ، وأن يجيدوا بأنفسهم في سبيل الله ،
 غير أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يستطع تجنيدهم ، فعادوا وفي حلوقهم

1- رواه مسلم .

2- رواه البخاري .

3- رواه أحمد .

غضة ، لتخلفهم عن الميدان ، وفيهم نزل قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرَنًا أَلَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩٢]. هؤلاء هم مخلصون فى نياتهم ، وصادقون فيما أضرروه . ولذلك قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " أخلص دينك يكفيك العمل القليل " (١) .

يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " (٢) . وفى الحديث : " إذا كان يوم القيامة جيء بالدينيا فيميز منها ما كان لله ، وما كان لغير الله رمي به فى نار جهنم " (٣) . ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِحْلَاصِ لِلَّهِ وَحُدَّةِ وَعِبَادَتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ مَاتَ وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ «.

قَالَ أَنَسٌ وَهُوَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهُ عَنْ رَبِّهِمْ قَبْلَ هَرَجِ الْأَحَادِيثِ وَاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ وَتَصْدِيقِ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ يَقُولُ اللَّهُ (فَإِنْ تَابُوا) قَالَ خَلَعُوا الْأَوْثَانَ وَعِبَادَتَهَا (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَاتَوْا الزَّكَاةَ) وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (٤) . والإخلاص يسطع شعاعه فى النفس وهو أشد ما يكون تألقا فى الشدائد المحرجة ، فعندها ينسلخ الإنسان من أهوائه ، ويصبح فى ساحة الله أو أباً طمعاً فى رحمته وخوفاً من عذابه . وحرارة الإخلاص تنطفئ رويداً رويداً كلما هاجت فى النفس نوازع الإثراء وحب الثناء ، والتطلع إلى الجاه ، ويعي الصيت والرغبة فى العلو؛ الافتخار وذلك لأن الله يحب للعمل أن ينتقى من كل شائبة

1- رواه الحاكم .

2- رواه مسلم .

3- رواه البيهقي .

4- رواه ابن ماجة .

تشويهه ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ الْدِّينُ الْخَالِصُ ۗ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ ﴾ [سورة الزمر: ٣]. والمعنى : إلا لله العباداة والطاعة وحده لا شركة لأحد معه فيها ، لأن كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة مالكه وفي حديث الحسن عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : " جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس ،

فقال الرسول الكريم : والذي نفس محمد بيده ، لا يقبل الله شيئاً شؤرك فيه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠ ﴾ [سورة الكهف: ١١٠]. قال رجل : يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً حتى نزلت هذه الآية { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } .

عن شهر بن حوشب قال : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال : أنبئني عما أسألك عنه أ رأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد فقال عبادة : ليس له شيء إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه .

إن ضعف الإخلاص عند كثير من أصحاب المواهب يجعل البلاد تشقى بمواهبهم . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك " (١) .

سلامة الصدر من الأحقاد

ليس هناك أروح للمرء ، ولا أطرد لهمومه ، ولا أقرلنفسه وعينه من أن يعيش المسلم سليم القلب ، مبرأ من وساوس الضغينة ، ونوران الأحقاد . إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها وأحس فضل الله فيها ، وفقر عباده إليها ، وذكر قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ : اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ ، أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ ، فَمِنْكَ وَحَدِّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَلَكَ الشُّكْرُ ، أَدَّى شُكْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي رِوَايَةٍ : وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ " (١) . وإذا رأى أذى يلحق أحداً من خلق الله رثى له ، ورجا الله أن يفرج كربته ، ويغفر ذنبه ، وذكر مناشدة الرسول ربه :

إِن تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا
وذلك يحيا المسلم صاحب صفحة ناصعة راضياً عنه ربه وعن حياته ، مستريح النفس من الحقد الأعمى ، والحسد الغاشم ، فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ، والقلب المشرق يبارك الله في قلبه .

عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – : " سئل عن أفضل الناس فقال : كل مخموم القلب صدوق اللسان " ، فقالوا : صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟ قال : " هو التقي ، النقي ، لا إثم فيه ، ولا بغي ، ولا غل ، ولا حسد " (٢) .
ومن ثم كان المسلم حقاً ، وكانت الجماعة المسلمة هي التي تقوم على عواطف الحب المشترك ، والود والتعاون المتبادل ، وهي كما وصف القرآن الكريم :
﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة الحشر: ١٠] .

1 - رواه ابوداود .

2 - رواه ابن ماجة .

والمعنى هؤلاء هم المؤمنون المستحقون للإحسان والفضل ، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، ويدعون للمؤمنين بقولهم : " رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ " .

يقول " أبوالسعود " : " ووصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ولا تجعل في قلوبنا غلاً وقرئ عمرًا وهما الحقد للذين آمنوا على الإطلاق ربنا إنك رؤوف رحيم أي مبالغ في الرأفة والرحمة فحقيق بأن تجيب دعاءنا ألم تر إلى الذين نافقوا حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم . ويقول " ابن كثير - رحمه الله تعالى " : " وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء أي الغنيمة نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غُلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } . وقال " الشيخ زادة " : " وبين تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية .

وقد روى عن " الشعبي " أنه قال : " تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم ؟

فقالوا: أصحاب موسى.

وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم ؟

فقالوا: أصحاب عيسى .

وسئلت الرافضة : من شر أهل ملتكم ؟

فقالوا: أصحاب محمد، أمرؤ! بالاستغفار لهم فسيبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم.

وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس، وذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره، وربما تخلف حيث سبق آخرين ويجب على المسلم أن يكون أوسع فكراً وأكرم عاطفة وذلك بالنظر إلى الأمور من خلال الصالح العام. وقد بما رأى "إبليس" أن الخطوة التى يتشهاها قد ذهبت إلى "آدم" - عليه السلام - فألى ألا يترك أحداً يستمتع بعده بعد ما حُرِّمَ هومنها.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لِأَفْعُدْنَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمَلْنَا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ [سورة الأعراف: ١٦: ١٨].

وفى معنى سلامة الصدر من الأحقاد يقول الحق - سبحانه وتعالى - :

﴿ يَتَأَيَّبُ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

[سورة يونس: ٥٧: ٥٨]. والمعنى قد جاءكم هذا القرآن العظيم وهو موعظة لكم من

خالقكم وشفاء لما فى صدوركم من الشك والجهل، وهداية من الضلال، ورحمة لأهل الإيمان يقول صاحب "الكشاف": والمعنى: " قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ ". أى

قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد وهو شفاء أى

دواءً لِمَا فِي صُدُورِكُمْ مِنَ الْعُقَاذِ الْفَاسِدَةِ وَدَعَاءٌ إِلَى الْحَقِّ وَرَحْمَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ

مِنكُمْ. " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ " يقول ابن

عباس - رضى الله عنهما - : " فضل الله هو القرآن "، ورحمته الإسلام. والمعنى :

ليفرحوا بهذا الذى جاءهم من الله، من القرآن والإسلام فإنه أولى ما يفرحون به

هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل

فإن الدنيا بما فيها لا تساوى جناح بعوضة ، كما ورد به الحديث الشريف : " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً . " يقول الصحابي الجليل : " محمد بن أبي المغيرة " : " سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً . " فقال هذا الصحابي ، وكان شاعراً :

جاء الحديث بأن الأرض أجمعها	وما حوت لا تساوي عند باريها
بعوضة أو جناحاً من مطائرها	لم يسق منها ولو فاضت مآقيها
من يكفر الواحد؟ الجبار نعمته	مجاةً من أحاج ربه فيها
لكنه هانت الدنيا عليه فلم	يمنعك إن ملكت كفاك ما فيها

ثم أن الحاسد شخص واهن العزم ، جاهل بربه وبسنته في كونه فلما فاتته الخير تحول يحسد الناجحين . قال الشاعر :

حسدوا الفتى أن لم ينالوا سعيه	فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسنة قلن لوجهها	حسداً وبغضاً إنه لمشوم

وكان أجدى عليه أن يتحول إلى ربه ، ويسأله من فضله فإن خزئنه ليست حكراً على واحد بعينه ، فلما عجز عنه في البداية يدركه في المرة الثانية فهذا بلا ريب أشرف من الحسد والضعينة على الآخرين . والفرق شاسع بين الحسد والطموح ، بين الحسد والغبطة . فالإسلام يتحسس النفوس بين الحين والحين ليغسلها من أدران الحقد ليجعلها حافلةً بمشاعر أذكى وأنقى نحو الناس والحياة . قال رسول - صلى الله عليه وسلم - : " ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً رجل أمّ قوماً وهم له كارهون . وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط وأخوان متصارمان " ^(١) . أي متقاطعان . هذا هو الإسلام الذي يأمرنا بالتخلق

بهذه الأخلاق الكريمة وهي سلامة الصدر من الأحقاد، ونقاؤها من الغلِّ وصفاؤها حتى يسلم المجتمع الاسلامي من هذه الآفات، ونعمة الرحمة والإخلاص وسلامة الصدور من الأحقاد التي تفتك بالمجتمع الاسلامي (١).

القوة

إن العقيدة المتينة مُعين لا ينضب للنشاط، والحماسة المذرية وتحمل الصعاب، ومواجهة الأخطار، بل هي سائق حثيث يدفع إلى لقاء الموت دون تهيب. تلك طبيعة الإيمان إذا استكمن من المسلم. إنه يضيف عليه قوة هائلة تظهر في سلوكه، وكل أعماله وأحواله. يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْتَكَدَّ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ [سورة الزمر: ٣٩: ٤١]. والمعنى اعملوا على ما انتم تعتقدون في أنفسكم من القوة والشدة، واجتهدوا أي أنواع مكرم، وكيدكم، فإني عامل أيضا في تقرير ديني، والسعي في نشره بين الناس فسوف تعلمون أن العذاب والخزي في الدنيا يصيبني، أو يصيبكم، فيظهر حينئذ أينا البطل أنا أو أتم، ويحل عليَّ العذاب المقيم الدائم في الآخرة أو عليكم.

ومن معاني القوة قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا وظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا" (٢). والرجل الضعيف هو الذي تستعبده الأعراف والتقاليد التي يعج المجتمع والتي يسودها غالباً التعصب

1 - تفسير ابي السعود ج ٥ ، ص ١٥٢ .

2 - رواه الترمذى في سننه .

والنزعات القبلية التى هى أشد ما تكون خطراً أو فساداً على الدين أكثر من الجاهلية الأولى ، بل هى جاهلية حديثة . وهذه العصبيات ، وتلك الأعراف تجر على المسلم متاعب كثيرة فى الدنيا والآخرة والباطل الذى يروج أحياناً ، ثم يثور الأقوياء عليه من أجل باطل انخدع به أمسى نصيراً لمن خاصمهم ، مستريحاً إلى ما علم منهم، مؤيداً لهم بعد شقاق .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " مَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ فِي رِضَا النَّاسِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ مَنْ أَرْضَاهُ فِي سَخَطِهِ ، وَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ فِي سَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ مَنْ أَسْخَطَهُ فِي رِضَاهُ حَتَّى يَزِينَهُ وَيُزِينَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ فِي عَيْنِهِ . (١) " إن الإيمان بالإسلام يجعل أصحابه أقوياء راسخين .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُوكَ لِأَهْرَؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الفرقان: ٤٢] . أجل : يجب على المسلم أن يكون شاعراً بقوة اليقين فى شخصه ، وروعة الإيمان فى نفسه إن لم يستطع فرض ذلك على ما حوله بقى كالطوبى الشامخ الأشم لم تطوئه اللجج الصاخبة ، وما الذى يستطيع الناس فعله لا مرمى يعتز بإيمانه ، ويستشعر القوة من نفسه لصلته القوية بربه واستعاضته فى دينه إنهم لو اجتمعوا عليه جميعاً ما استطاعوا النيل منه .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا غلام ألا أعلمك كلمات لعل الله أن ينفعك بهن قلت : بلى يا رسول الله قال : أحفظ الله يحفظك أحفظ الله تجده أمامك تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة إذا

سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد جف القلم بما هو كائن فلو اجتمع الخلق على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله في أم الكتاب لم يستطيعوا ولو اجتمع الخلق على أن يضرك بشيء لك يكتبه الله في أم الكتاب لم يستطيعوا فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين فافعل وإن لم تستطع فإن الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً^(١). والحقيقة أن فضيلة القوة تركز في نفس المسلم على عقيدة التوحيد، كغيرها من الفضائل التي تجعله يرفض الهوان في الأرض، لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء، ولأنه يستطيع في نطاق إيمانه أن يكون أمة واحدة، وفي فمه قول الله - عز وجل - : ﴿ قُلْ أَعْيَرَاللهُ اتَّخَذَ وِليًا فَاطِرَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنَّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنَّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ [سورة الأنعام: ١٤: ١٥]. ويقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ [سورة النحل: ١٢٠] فهو أمة لوحدة بقوة يقينه وقوة صلته بخالقه، وتمسكه بعقيدته، واتصاله بربه - سبحانه وتعالى.

ويقول - صلى الله عليه وسلم - : " إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمَائِهِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً ". فإذا ما أردت الحصول على " جمل " لتأكل منه لحما عثرت عليه بسهولة ويسر كبيرين لأن كل بعير فيه لحم، لكنك إذا أردت " بعيراً " ترحل عليه وتتخذ سفينة للصحراء عَزَّ العُثُور عليه، ولن تحصل عليه إلا بشق الأنفس، فالناس كذلك مائه لا تجد فيها راحلةً .

ومن فضائل القوة التي يوجهها الإسلام أن تكون وثيق العزم . مجتمع النية على إدراك هدفك بالطرق السليمة، والوسائل الصحيحة فعن عوف بن مالك - رضي الله عنه - قال : " أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ .

فَقَالَ الْمُقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ اللَّهَ يُلْوِمُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنَّ عَلَيْكَ بِالْكَئِيسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » (١).

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ أَحْرَصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزُ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » (٢). فإن الهزيمة أمام الشيطان الذى يجعلك تتحسر على ما فات ليس من خلق المسلم الذى يأمره القرآن فالواجب على المسلم ألا يبكى الماضى وليعيش مهموناً فى نفسه ، وتخور قواه أما المواقف الصعبة بل يأخذ من الماضى عبرة وعظة يفيد منها فى مستقبله وينتفع بها فى حاضره ، وقد عده القرآن الكريم مظهراً من مظاهر الحسرة التى تتلجج فى قلوب الكافرين . قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَاقْتُلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكِ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي ۗ وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۗ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦]. ويقول - صلى الله عليه وسلم - : " من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله " . وإن التوكل على الله الذى يقوى الإنسان لون من ألوان الثقة بالله . يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۗ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۗ ﴾ [سورة إبراهيم: ١٢]. والمعنى : وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية مما أقرتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه وعليه وحده يعتمد المؤمنون فى جميع أمورهم ، وقالت الرسل : " اى شيء يمنعنا من التوكل على الله ؟ . وقد نصرنا - سبحانه وتعالى - بطرق النجاة من

١- رواه ابى داود .

٢- رواه مسلم .

عذابه ، ولتصبرن على آذاكم . يقول ابن الجوزي : " إنما قص هذا وأمثاله على نبينا - صلى الله عليه وسلم - ليقنتدي بمن قبله في الصبر ، وليعلم ما جرى لهم . **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** " وليس هذا تكرر وإنما معناه الثبات على التوكل . والمعنى : " فليداوموا وليستمروا على التوكل عليه وحده .

وقد نصح الله - عز وجل - قوم هود فأرشدهم إلى أسباب القوة الصحيحة وكانوا عمالقة جبارين : فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ **يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ٥١ ﴾ وَيَقَوْمِ **أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** ٥٢ ﴾ [سورة هود: ٥٢] . والمعنى : استغفروا ربكم من الكفر والإشراك به - سبحانه وتعالى - وارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه ، والتمسك بالإيمان والتوحيد ، وعند ذاك يرسل عليكم المطر غزيراً . روى أن " عاداً " كان قد حبس عنهم المطر " ثلاث سنوات " حتى كادوا يهلكون ، فأمرهم " هود " - عليه السلام - بالتوبة ، والرجوع إلى الله - عز وجل - والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر . وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبباً للرحمة ، ونزول الأمطار ، وبذلك يزيدكم عزةً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم .

يقول " مجاهد " - رضي الله عنه - : " إن يزيدكم شدة إلى شدتكم . فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش . حتى إنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ . ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرين على الإجرام ، واقتتراف الآثام ، وارتكاب المناكر ، واجترأح السيئات ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحاً ، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادئ معروفة ، لا يصانع على حساب الحق بما ينقص من كرامته ، بل يجعل قوته من قوة العقيدة التي يمثلها ، ويعيش لها ، ولا يحيد عن هذه الصراحة أبداً في تقرير حقيقة ما . وحدث أن كسفت الشمس على عهد رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - يوم مات إبراهيم ابن النبي فقال الناس : كسفت لموت إبراهيم فخطب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال في خطبته : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة (١). وكان من صناعة الدجل أن يتلقن أصحاب الدجل الحوادث المقارنة لبعض الأحوال فيزعموا أنها كانت لذلك مع أنها تنفع أقواماً وتضر بآخرين . ومن القوة التي يجب أن يتصف بها المسلم الجرأة في الحق ، فيجب عليه أن يكون نقاداً للعيوب الفاشية ، جريئاً في الحملة عليها لا يتهيب كثيراً ، ولا يستحي من قريب ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وقد كرر الإسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة من الأكابر ، وأن يناديهم بألفاظ التكريم .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إذا قال الرجل للمنافق : يا سيد ، فقد أغضب ربه " (٢) . وقد ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحاب الجنة وخلائهم ، وأصحاب النار وخلائهم فعد فضائل القوة ، والكرامة ، والنبل في الأولين ، وقرن رذائل الهوان والاختلاس ، والعجز والتلاعب بالآخرين قال - صلى الله عليه وسلم - : " أهل الجنة ثلاثة : إمامٌ مقسطٌ ، ورجلٌ رحيمٌ رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلمٍ ، ورجلٌ غنيٌ عفيفٌ متصدقٌ ، وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا رب له ، والذين هم فيكم تبع لا يبيعون أهلاً ولا مالا ، ورجلٌ إذا أصبح يُخادعك عن أهلك ومالك ، ورجلٌ لا يخفى له طمعٌ وإن دقَّ إلا ذهب به ، والشنظيرُ الفحاشُ وذكر البخل والكذب " (٣) . وكلمة : يخفى في الحديث لفظ يستعمل في الظهور . والشنظير هو : سيء الخلق ، الفحاش والشنظير هي الشتم .

1 - رواه البخاري .

2 - رواه الحاكم .

3 - رواه مسلم .

وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستعيز بربه من هذه المصائب الهدامة فيقول - صلى الله عليه وسلم - : " إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال " (١) . وإن الصبر والرجاء هما عدة اليوم والغد ، ويحتمل المرء فى طلبهما المصائب الفادحة فلا يذل ، بل يظل محصناً من نواحيه كلها ، عالياً على الأحداث ، والفتن لأنه مؤمن قوى الإيمان ، وقوى العزيمة ، والمؤمن الصادق الإيمان لا يضرع إلا إلى الله . ولا يرجوا أحدا سواه . هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . والتي يجب على المسلم أن يتحلى بها حتى يكون ذا قوة تمكنه من مواجهة أعباء الحياة فى كل ميادينها ، فالقوة مطلوبة لأن يتسلح بها المؤمن وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير " (٢) .

1 - رواه ابوداود .
2 - تفسير المراعى ج ٨ ، ص ٩ .

الجود والكرم

إن الإسلام دين يقوم على البذل والعطاء والكرم والإنفاق ، ويمقت الشح والإمساك والبخل ، ولذلك حبيب المسلم في السخاء والإحسان . يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٤] . والمعنى : إن الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته في جميع الأوقات ، من ليل ونهار ، وفي جميع الأحوال سرّاً وعلانيةً فلهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا .

ويقول " المراعى " فى تفسيره : " إن الذين ينفقون أموالهم فى جميع الأزمنة وفى سائر الأحوال ، ولا يجحدون عن البذل إذ لاح لهم وجه الحاجة إلى ذلك ، لهم ثوابهم عند ربهم فى خزائن فضله ، ولا خوف عليهم حين يخاف الباخلون من تبعة بخلهم بالمال وحبه حين الحاجة إلى بذله فى سبيل الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من صالح العمل الذى يرجون به ثواب الله . ذلك أن نفوسهم قد سمت ، وبلغت حداً من الكمال لم يبق لسلطان المال معه موضع فى قلوبهم ، وأصبحت مرضاته الشغل الشاغل لهم . فلا يستريح لهم بال إلا إذا سدوا ثغرةً فتحها عدو وهؤلاء هم المؤمنون حقاً ، الذين يبغون فضلاً من ربهم ورضواناً ، وإنما قدم الليل على النهار ، والسر على العلانية للإيحاء إلى تفضيل صدقة السر على صدقة العلانية ، وجمع بين السر والعلانية إيماءً إلى أن لكل منهما موضعاً تقتضيه المصلحة قد يفضل فيه سواه ، إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها .

وقد روى أن الآية نزلت فى " أبى بكر الصديق " - رضى الله عنه - إذ أنفق أربعين ألف دينار ، عشرة بالليل ، وعشرة بالنهار ، وعشرة بالسر ، وعشرة بالعلانية . وأخرج " ابن جبير " بسند ضعيف عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنها نزلت فى " على بن طالب " - كرم الله وجهه - كانت له أربعة دراهم ، فأنفق

بالليل درهما، وبالنهار درهما، ودرهما في السر، ودرهما في العلانية . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ألا إن ذلك لك " .
 ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " يا ابن آدم إنك تبذل الفضل خيرك ، وإن تمسكه شركك ولا تلام على كفاف ، وأبدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى " (١) . وقد وجه القرآن الكريم المنفقين إلى أوجه النفقة دون سرف ، أو شر ، أو تبذير وأن الحق لذوى القربى ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝٢٧ وَإِمَّا تَعْرِضْنَهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝٣٠﴾ [سورة الإسراء: ٢٦: ٣٠] .
 ويمضى السياق فى الإيحاء بالاحتاجين ، وصيانة حقوقهم ووجوههم فأمر المسلم أن يرجبهم الخير ، وأن يرد بميسور القول إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون . يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : " وَإِمَّا تَعْرِضْنَهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا " . ويقول الإمام الشيخ " محمد الغزالي " - رحمه الله تعالى - : " ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطرد ، وحربه على الكزرة والبخل موصولة متقدة (٢) . وفى الحديث : " السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِّنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِّنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِّنَ النَّارِ وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِّنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِّنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِّنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِّنَ النَّارِ وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِّنَ عَابِدٍ بَخِيلٍ " (٣) . ولا

1- رواه مسلم .

2- خلق المسلم ص ١٠٩ .

3- رواه الترمذى .

يوجد نظام يستغنى الناس فيه عن التعاون : "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان".

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَكَذَّبُواكُمْ بِمَا نَقُولُونَ

فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا

﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ

فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ

بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ [سورة الفرقان: ١٩: ٢٠]. والإسلام بشرائعه المحكمة يسعى لتحقيق

الأهداف النبيلة ، ويدعو المسلمين إلى النشأة الكريمة ، وإسداء العون والمساعدة

لذوى الحاجات والمعوزين . وقال تعالى : ﴿ إِنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَفْجُرْكُمْ تَبَخَّلُوا

وَيُخْرِجَ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاتَا تَمَّ هَتَوْلَاءَ تَدْعُونَ لِنُفْسُوقًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ

مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ [سورة محمد: ٣٧: ٣٨].

ومن معاني الجود والكرم في القرآن الكريم قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ

وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ [سورة التغابن: ١٥: ١٦]. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية

: " كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا

تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه رُجرتم .

وقوله تعالى: { وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ } أي: وابدلوا مما رزقكم الله على

الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن

إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا

والآخرة. وقوله: { وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } . أي من سلم من

الشح أفلح وأنجح . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ «

اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» (١)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمْرُهُمْ أَنْ يَقْطَعُوا أَرْحَامَهُمْ فَقَطَّعُوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟، فَقَالَ: «أَنْ يُرَاقَ دَمُكَ، وَيُعْقَرَ جَوَادُكَ»، قَالَ: فَأَيُّ الْهَجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ تَهْجَرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ، وَهَمَّا هِجْرَتَانِ: هِجْرَةٌ لِلْحَاضِرِ، وَهِجْرَةٌ لِلْبَادِي، فَأَمَّا هِجْرَةُ الْبَادِي فَإِذَا دُعِيَ أَجَابَ، وَإِذَا أُمِرَ أَطَاعَ، وَأَمَّا هِجْرَةُ الْحَاضِرِ فَأَشَدُّهُمَا بَلِيَّةً، وَأَعْظَمُهُمَا أَجْرًا» (٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي جَوْفِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» (٣). ويقول عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : " ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له " . وفى الحديث : " اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » ..

وعن أبو زرعة حدثنا أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً . قال - صلى الله عليه وسلم - : « أن تصدق وأنت صحيحٌ شحيحٌ ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » (٤) . والبيدل الواسع عن إخلاص ورحمة ، يغسل الذنوب ، ويمسح الخطايا . يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِن تَقْرَبُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ ﴾ علم الغيب والشهادة العزيز الحكيم [سورة التغابن: ١٨] .

1 - رواه مسلم .

2- رواه احمد وابوداود .

3- رواه مسلم .

4- رواه البخاري .

وعن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - قال : تعبد عابد من بني إسرائيل فعبد الله في صومعته ستين عاماً ، فأمطرت الأرض ، فاحضرت فأشرف الراهب من صومعته . فقال : لو نزلت فذكرت الله لازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ، ثم أغمي عليه ، فنزل الغدير يستحم فجاءه سائل فأوماً إليه أن يأخذ الرغيفين أو الرغيف ، ثم مات . فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له (١) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " صنائع المعريف تقي مصارع السوء ، والصدقة خفياً تطفى غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكل معريف صدقة ، وأهل المعريف في الدنيا أهل المعريف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعريف " (٢) . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وردوا نائبة البلاء بالدعاء والتضرع » (٣) . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا يُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئاً مِنَ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لِحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَاناً ، كُلَّهُمُ عَنْهَا " . وروى عن عائشة - رضي الله عنها - أَنَّهَا دَبَحُوا شاةً فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - « مَا بَقِيَ مِنْهَا » . قَالَتْ مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَنْفُهَا . قَالَ « بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَنْفِهَا » . يعنى ما أنفق فهو الباقي على وجه الحقيقة ، وما تبقى منها فهو الهالك قال تعالى :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل: ٩٦]

ويرى لنا الرسول عن ربه هذا الحديث : " يا ابن آدم ، أودع من كنزك عندي لا حرق ، ولا غرق ، ولا سرق أو فيكهُ أحوج ما تكون إليه " (٤) . وقد يظن

1- رواه ابوحيان .

2 - رواه الطبراني .

3 - رواه ابوداود .

4 - رواه البيهقي .

البعض أن السخاء ينقص الثروة ، ويدينى من الفقر، وتلك وساوس الشيطان الذى يقعد للمسلمين كل مرصد ليصدهم عن فعل الخير، ويأمرهم بالشر، والحق أن الجود والكرم طريق السعة ، وجلب الخيرات ، ودفع المضار.

وفى الحديث : " ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ « . قَالَ « مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ وَلَا ظُلْمٌ عَبْدٌ مَظْلَمَةٌ فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَرٍّ أَوْ كَلِمَةً نَحَوَهَا وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ . قَالَ « إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعَلِمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرِزْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرِزْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٌ لَمْ يَرِزْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " (١) . فظن المسلم أن الصدقة والجود والكرم ينقص المال فتلك وساوس الشيطان التى يلقيها فى نفوس القاترين الأذنياء .

وفى معنى الجود والكرم يقول الحق - سبحانه وتعالى- : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ هُم جَزَاءُ الَّذِي ضَعِفَ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ رِئِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرْ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة سبأ: ٣٧-٣٩]. والمعنى : وما أنفقتم من شيء فيما أمركم به بركم وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم ويعوضكم بدلاً منه ، فى الدنيا مالا ، وفى الآخرة ثواباً ، كل خلف دونه وفى الحديث : " أنفق بلائاً ولا تخشى من ذي العرش إقلالا " .

وعن "مجاهد" - رضي الله عنه - : " إذا كان لأحدكم شيء فليقتصد ويتأول هذه الآية { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ } فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهوينفق نفقة الموسع عليه : أي ما كان من خلف فهو منه تعالى وربما أنفق الإنسان ماله كله في الخير ولم يخلف حتى يموت ، ومثلها { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا } . يقول ما آتاها من رزق فمنه تعالى وربما لم يرزقها حتى تموت ، والآية تحت على الإنفاق وأن البسط والقدر إذا كانا من عنده - عزوجل - فلا ينبغي لمن وسع عليه أن يخاف الضيعة بالإنفاق ولا لمن قدر عليه زيادتها ، وقوله تعالى : { وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ } تذييل يؤيد ذلك كأنه قيل : فيرزقه من حيث لا يحتسب . وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول ، أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً " (١) .

وفى الحديث : " قال - صلى الله عليه وسلم - : " يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقَةً مِنْ رَجُلٍ وَلَا قَرَابَةً مُتَحَاجِرِينَ إِلَى صَدَقَتِهِ ، وَيَصْرُفُهَا إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (٢) . وقال - صلى الله عليه وسلم - « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحْمِ تَتَانِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ » (٣) .

هذا هو الجود والكرم في القرآن الكريم وهو خلق المسلم الذي يجب أن يتخلق به في كل زمان ومكان . والإسلام بهذا الإرشاد الدقيق يريد أن يرغب المسلم في الإنفاق في سبيل الله ليسعد المسلم بذلك في الدنيا بحب الناس له ، وقربهم منه ، وفي الآخرة بالشواب الجزيل ، والفوز بجنت عرضها السماوات والأرض أعدت لأمثاله من المنفقين الذين يضحون بأموالهم كرمًا بغية نيل الجزء الحسن لدى ربهم والتمتع بما أعده لهم من أجر في دار النعيم ، دار الإقامة الخالدة . (٤)

1- رواه مسلم .

2- رواه الطبراني .

3- رواه الترمذي .

4- تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ، ص ٣٧٧ .

الإخاء

ليست هناك دواع تجعل الناس يعيشون أشقاتاً متفرقين بل إنه من الواجب أن يكونوا معتصمين بحبل الله ، متحدين غير متفرقين يكفل بعضهم بعضاً ، ويحب بعضهم بعضاً ، ويتعاونون على الخير وينبذ الشر ، الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم ويؤكد القرآن الكريم هذا الخلق فيقول - جلا وعلا - : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]. والمعنى : يقول - سبحانه وتعالى - مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زجها وهو " آدم وحواء " وجعلهم شعوباً وهي لقطعة أعم وأشمل من " القبائل " وبعد القبائل ، الفصائل ، والعشائر والأفخاذ والبطون ، وغير ذلك وقيل : إن المراد بالشعوب بطون العجم ، والمراد بالقبائل " بطون العرب " كما أن " الأسباط " بطون " بني إسرائيل " فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى " آدم وحواء " - عليهما السلام - سواء ، وإنما يتفاضلون بالأموال الدينية وهي طاعة الله - سبحانه وتعالى - . ومتابعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم بعضاً منبها على تساويهم في البشرية: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " . يعني : ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته، ويقول " مجاهد " - رضي الله عنه - في قوله تعالى : { لِتَعَارَفُوا } ، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا. وقال سفيان الثوري: كانت " حمير " ينتسبون إلى مخاليفها ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وعن أبي هريرة، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر ". ثم يقول الحق - سبحانه وتعالى - : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى والعمل الصالح لا بالأنساب والمناصب والرتب وكثرة الأصول والعمارات والسيارات . وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال - صلى الله عليه وسلم - : " الاتكال على النسب دون العمل منقصة، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ". وقال - صلى الله عليه وسلم - : " من أطاعني رحمته ورحمتي تلحق السابع من ولده ، ومن عصاني لعنته ولعنتي تلحق السابع من ولده . وقال - عليه الصلاة والسلام - : " من أطاعني أدخلته الجنة ولو كان عبداً حبشياً . ومن عصاني أدخلته النار ولو كان شريفاً قرشياً " . وقد تعارك سليمان الفارسي - رضي الله عنه - مع سيدنا " علي بن أبي طالب " - رضي الله عنه - فشكاه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " أما أنت يا سليمان فقريب قريباً ، وأما أنت يا علي فقريب قرابةً . والقرباة " دم ولحم " والقربة " جسد وروح " وبذلك نرى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يقرب سيدنا سليمان ويقدمه على سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما أجمعين - وقال - عليه الصلاة والسلام - : " سليمان من آل البيت " . وصدق الشاعر حين قال :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وحط بالشرك النسيب أبو لهب

عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي الناس أكرم ؟ قال : " أكرمهم عند الله أتقاهم " .
قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: " فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله " .

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: " فعن معادن العرب تسألوني؟ "

قالوا: نعم.

قال: " فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا " (١)

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " . (٢) وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال له : " انظر إنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله " (٣) . وقال - صلى الله عليه وسلم - : " المسلمون إخوة لا فضل على أحد إلا بالتقوى " . وقال - صلى الله عليه وسلم - : " كلكم من آدم وآدم من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان " .

فالتعارف هو أساس العلائق بين الناس أجمعين ، وكل رابطة توكلها هذا التعارف فهي رابطة يجب دعمها ، وهذه الإخوة هي روح الإيمان الحي ، ولباب المشاعر الرقيقة التي يكنها الإسلام لإخوانه كأفنان منبتقة من دوحة واحدة . يؤكد هذا المعنى قوله - صلى الله عليه وسلم - : " مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " . (٤)

وقال - صلى الله عليه وسلم - : " الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (٥) . فمن علائم

1 - رواه البخاري .

2 - رواه ابن ماجة

3 - رواه أحمد .

4 - رواه البخاري .

5 - رواه البخاري ومسلم .

الأخوة الكريمة أن تحب النفع لأخيك وأن تهش ترفع إليه مثلما تبتهج بالغايب حين يصل إليك . وقال - صلى الله عليه وسلم - : " المؤمن للمؤمن كالبنيان ترفع المرصوص يشد بعضه بعضاً " (١) . ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة ، وليست نعمة التجانس الرئوي فحسب ، بل نعمة التعاون المادي كذلك . وقد قيل : " المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه " . ويؤكد المعاني التى أومأنا إليها أنفا قوله تعالى :

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَعَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٨﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢: ١٠٤].

والمعنى : " وأذكروا إنا نعمة عليكم يا معشر العرب حين كنتم أعداء ألداء فألف بين قلوبكم بالإسلام ، وجمعكم على الإيمان .

ويقول المراعى فى تفسيره : " وأذكروا أيها المؤمنون النعمة التى أنعم الله بها عليكم حين كنتم أعداء يقتل بعضكم بعضاً ، ويأكل قويكم ضعيفكم ، فجاء الإسلام فألف بينكم ، وجمع جمعكم ، وجعلكم إخواناً ، حتى قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم ، وكان بعضهم يؤثر غيرى ، على نفسه وهو فى خصاصة وحاجة إليه ، وأطفأ الحروب التى تطاولت بين " الأوس " و " الخزرج " عشرين سنة ومائة . وأنقذهم مما هو أدهى وأمرّ وهو عذاب الآخرة ويقول " القرطبي " : " وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف فى الفرع : فإن ذلك ليس اختلافاً إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع وما زالت الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث وهم مع ذلك متآلفون . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اختلاف أمّتي رحمة " وإنما منع الله اختلافاً هو سبب الفساد . وإن أخوال الدين

تعرض العناصر بين المسلمين ،وليس المراد عناصر العصبية المقتية ، بل هو تناصر المسلمين الصالحين . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أَنْصُرْ أَهْلَكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ . قَالَ « تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (١) . أو قال - صلى الله عليه وسلم - : " من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام " (٢) .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ٩: ١٠] .
 والمعنى : ليس المؤمنون إلا إخوة ، تجمعهم رابطة الإيمان ، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا شحناء ، ولا تباعض ، ولا تقاتل . ويقول المفسرون : " إنما للحصر . فكأنه يقول : لا أخوة إلا بين المؤمنين ولا أخوة بين مؤمن وكافر ، وفى الآية إشارة إلى أن إخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب بحيث لا تعتبر إخوة النسب إذا خلت عن إخوة الإسلام إلا ترى انه إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين لا لأخيه الكافر وكذا إذا مات أخ الكافر وذلك لان الجامع الفاسد لا يفيد الأخوة وان الاعتبار الأصلي الشرعي ألا يرى أن ولدى الزنى من رجل واحد لا يتوارثان . وهذا المعنى يستفاد من الآية أيضاً لأن إنما للحصر فكأنه قيل لا أخوة إلا بين المؤمنين فلا إخوة بين المؤمن والكافر . وكسب المرتد حال إسلامه لو ارثه المسلم لاستناده إلى ما قبل الردة فيكون توريث المسلم من المسلم وأما كسبه حال رده فهو فئى يوضع فى بيت المال لأنه وجد بعد الردة فلا يتصور إسناده إلى ما قبلها . " فأصلحوا بين

1- رواه البخاري .

2- رواه الاصبهاني .

إخوانكم " المؤمنون ، ولا تتركوا الفرقة تدب ، والبغضاء تعمل عملها ، وأتقوا الله تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بجنته ومرضاته.

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ

عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

[سورة الحشر: ٩]. والمعنى : " الذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وأمناً قبل كثير من

المهاجرين وهم الأنصار - رضي الله عنهم - . ويقول القرطبي : " أي تبوءوا الدار من

قبل المهاجرين ، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه ، والتبوء هو " التمكن " و " الاستقرار "

وليس المراد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد أنهم قبل هجرة النبي - صلى

الله عليه وسلم - إليهم وهم يحبون إخوانهم المهاجرين ، ويؤثرونهم بأموالهم .

يقول " الخازن " : " وذلك أنهم أنزبوا المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في

أموالهم ، ومع هذا البذل والعطاء والتضحية بالأموال وغيرها لإكرام إخوانهم

المهاجرين . { وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً } أي لا يجد الأنصار حزنَةً وغيظاً

وحسداً من إخوانهم المهاجرين { مِمَّا أُوتُوا } أي أعطي المهاجرين من الفداء

والغنيمة دونهم وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قسم أموال بني

النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة فطابت أنفس الأنصار

بتلك القسمة . { وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ } أي يفضلون ويؤثرون الأنصار المهاجرين

بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم { وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } أي فاقة وحاجة إلى ما

يؤثرون به ، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال ، ولكنه عن حاجة وفقر ، وذلك غاية

الإيثار ومن حماه الله وسلم من " البخل " والشح فقد نجا وأفلح ونجح وفاز في

الدنيا والآخرة .

والشح هو " البخل الشديد " مع الجشع والطمع " وهو غريزة في النفس

ولذلك أضيف إليها . يقول سيدنا عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : " ليس

الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له " . وفي

اختيار الأصدقاء

إن للصدقة الخاصة أثر عميق في توجيه النفس والعقل ، ولها نتائج مهمة يصيب الجماعة كلها من تقدم وتأخر ، ومن قلق واطمئنان . وقد عنى الإسلام بهذه الصلوات التي تربطك بأشخاص يؤثرون فيك ، ويتأثرون بك ويقتربون من حياتك اقتراباً خطيراً لأمد طويل . إن هذه الصلوات إن بدأت وامتت نبيلة خالصة تقبلها الله وباركها ، وإن كانت رخيصة مهينة ردها في وجوه أصحابها : وهذه المعاني تتجلى واضحة في قول الله تعالى : ﴿ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ [سورة الزخرف: ٦٧: ٦٩]. والمعنى : إن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداءً إلا من كانت صداقته ومحبته لله .

يقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله ، عز وجل ، فإنه دائم بدوامه . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : صارت كل حلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين . تشریفاً وتطيباً لقلوبهم فيقول : " يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ " . في هذا اليوم العصيب ، ولا انتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا ، فيقول ابن كثير في معنى هذه الآية : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله ، - عز وجل - فإنه دائم بدوامه . وهذا كما قال إبراهيم ، عليه السلام ، لقومه : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٢٥) [سورة العنكبوت: ٢٥] .

وعن عليّ - كرم الله وجهه - قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله ، فقال : اللهم ، إن فلانا خليلي كان

يأمرني بطاعتك وطاعة رسوك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أنني ملائكتك ، اللهم فلا تضله بعدي حتى تُريه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني .

فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً وبكيت قليلاً .

قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما ،

فيقال: ليثن أحدكما على صاحبه ،

فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل.

وإذا مات أحد الكافرين، وبشر بالنار ذكر خليله .

فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسوك ،

ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أنني غير ملائكتك ، اللهم فلا تهدده بعدي

حتى تريه مثل ما أريتني ، وتسخط عليه كما سخطت علي .

قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما .

فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه .

فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ ، وبئس الصاحب ، وبئس الخليل.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين .

وعن أبي هريرة، - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - : " لو أن رجلين تحابا في الله ، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، لجمع الله

بينهما يوم القيامة ، يقول: هذا الذي أحببته فيَّ" . وقوله: { يَعْبادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ مَحْزُونُونَ } ثم بشرهم . فقال: { الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا

مُسْلِمِينَ } أي: آمنت قلوبهم وبوأطمنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم .

فيبأس الناس منها غير المؤمنين .

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحدٌ منهم إلا فرغ ، فينادي مناد : { **يَعْبَادِ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** } فيرجوها الناس كلهم .

فيجب على المسلم أن يختار صديقة الذي يهديه إلى الخير ويبعده عن الشر، ويأمر، بالمعرف، وينهاه عن المنكر فتخير الأصحاب من أعان على طاعةٍ وليس معنى هذا أن يتعد المسلم عن الناس ولكن المعنى أن يتخير الأصدقاء . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " **إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَدَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَدَاهُمْ** " (١) . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " **إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيُّنَ الْمُتَحَابِّينَ بِيَجَلَالِي الْيَوْمِ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي** " (٢) . وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " **إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لِأَنْسَاءٍ مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءٍ وَلَا شُهَدَاءٍ يَغْنَبُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى** » . قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ .

قال : « **هُمُ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَىٰ غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنْ وُجِّهَهُمْ لِنُورٍ، وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ** » (٣) . وقرأ هذه الآية ﴿ **أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [سورة يونس: ٦٢] . قال - صلى الله عليه وسلم - : " **مَا مِنْ رَجُلَيْنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ بَظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ** " (٤) .

إن أثر الصديق في صديقه عميق ، ومن ثم كان لزوماً على المسلم أن يتخير الأصدقاء ، وينتقى الإخوان ، وأن يتلو حقائقهم حتى يطمئن إلى معادنها ، ويقف

1 - رواه الترمذی .

2 - رواه البخاري ومسلم .

3 - رواه ابوداود .

4 - رواه الطبراني .

على أصالتها . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مِنْ يُخَالِلُ " (١) .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَنَا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الفرقان: ٢٧: ٢٩] . والمعنى : واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرط فى جنب الله وعض اليدين كنايةً عن الندم والحسرة . والمراد بالظالم هنا : "عقبة بن معيط" وهى تعم كل ظالم فى كل عصر وزمان ومكان .

يقول "ابن كثير" - رحمه الله تعالى - : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مزية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرةً وأسفاً . وسواءً كان سبب نزولها فى "عقبة بن أبي معيط" أو غيره، من الأشقياء، فإنها عامة فى كل ظالم، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: ٦٦: ٦٨]

فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعص على يديه قائلاً : { يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَنَا خَلِيلًا } يعنى : من صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة، وسواءً فى ذلك "أمية بن خلف، أو أخوه، أبي بن خلف"، أو غيرهما . { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } . وهو القرآن { بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي } أي : بعد بلوغه إليّ، قال الله تعالى : { وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } أي : يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله فى الباطل، ويدعوه إليه .

ثم يقول الظالم : يا ليتنى أتبعته الرسول فاتخذت معه الطريق إلى الهدى
ينجيني من العذاب ، ويا هلاكي وحسرتى ، يا ليتنى لم أصاحب فلاناً وأجعله
صديقاً لي . ولفظ فلان كنايةً عن الشخص الذى أضله وهو "أبي بن خلف" .
ويقول "القرطبي" : وكنى عنه ، ولم يصرح باسمه ليتبادل جميع من فعل مثله .
حيث انه أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وأمنت ، ثم يقول - سبحانه
وتعالى - " وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا " . يعنى : يضلّه ويغويه ، ثم
يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره .

لذا أوجب الإسلام على المسلم أن يتخير الصديق ، والجليس الصالح . فقال
- صلى الله عليه وسلم - : " إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ
وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْدِثِكَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّبَعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً
وَنَافِخِ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً " (١) .

ومما يؤكد هذه المعاني السامية قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّهُمْ
لَنْ يُعْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ
أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ
وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ [سورة الجاثية: ٢١] . من أجل ذلك كان
أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجعلون من التواصي بالحق
والتعاون على الخير سياجاً يحفظ ما بينهم من ودٍ ، ويقربهم من غفران الله
ورضوانه . وعن أبي قلابة قال : التقى رجلان في السوق ، فقال أحدهما لصاحبه :
يا أخي تعال ندعو الله ونستغفره في غفلة الناس لعله يغفر لنا . ففعلا فقضى
لأحدهما أنه مات قبل صاحبه فأتاه في المنام فقال : يا أخي أشعرت أن الله غفر
لنا عشية التقينا في السوق " (٢) .

1 - رواه مسلم .

2 - رواه ابن أبي الدنيا .

ومن سنن الإسلام فى الصداقة التزور يجب أن يكون خالياً من كل غرض ، وأن يكون خالصاً لوجهه - سبحانه وتعالى - . وعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته مكاً فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخاً لى فى هذه القرية . قال هل لك عليه من نعمة تربتها قال لا غير أنى أحببته فى الله - عز وجل - . قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحببك كما أحببته فيه » ^(١) . إنها خطى تخطى بأعظم الثواب لأنها خالصة لوجهه .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء: ٩٧: ١٠٢] . ويقول - صلى الله عليه وسلم - : " لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي " ^(٢) .

فمن ذلك ما قاله يرثي به غالب بن السعدي:

هو الدهر لا يشوي وهن المصائب	وأكثر آمال الرجال كواذب
فيا غاباً لا غالباً لرزية	بل الموت لا شك الذي هو غالب
وقالت: أخي، قالوا: أخ من قرابة؟	فقلت لهم: إن الشكول أقارب
نسيبي في رأيٍ وعزمٍ ومنصبٍ	وإن باعدتنا في الأصول المناسب
كأن لم يقل يوماً: كأن، فتنثني	إلى قوله الأسماع وهي رؤاغب
ولم يصدع النادي بلفظة فيصل	سنانية في صفيحتها التجارب ^(٣)

1 - رواه مسلم .

2 - رواه ابوداود .

3 - صفوة التفاسير ج ٣ ، ص ١٦٤ .

القصد والعفاف

يقول الإمام " الغزلي " ولا أعنى به صاحب الإحياء ، وإنما أعنى به إمام العصر الحديث ، ألا وهو الشيخ الجليل ، ومفكر الاسلامى الكبير ، والمرحوم الشيخ " محمد الغزلي " ، والذي يرقد جثمانه فى بقيق الغرقد بالمدينة المنورة - رحمه الله - وصلى الله على ساكنها سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - : " قد تضمن الإسلام طائفةً من الإرشادات المتصلة بحياة المسلمين الخاصة ، قصد بها إلى تنظيم شئونهم البدنية والنفسية ، ووضعها على أساس كريم . هى آداب تتعلق بمطعم الإنسان ، وملبسه ، ومسكنه ، وسائر آماله التى يسعى إليها فى هذه الحياة ، لا يجنح بها إلى الرهبانية المغرقة ، ولا إلى المادية الجشعة ، فهي تقوم على التوسط والاعتدال ، ومن ثم ، فتنفيذها سهل قريب " . فحياة المؤمن المصدق بالدار الآخرة ليست كحياة الكافر الذى يعد عمره فوق ظهر الأرض هو دنياه وآخرته ، ولذلك يقول الله فى هؤلاء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٢]. والمعنى : إن الله ذا الجلال والكمال يدخل يوم القيامة من آمنوا وصدقوا رسوله وعملوا صالح الأعمال بساتين تجرى من تحت قصورها الأنهار كرامة لهم على إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر ، والذين قصدوا توحيد الله وكذبوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - يتمتعون فى هذه الدنيا بحطامها ، ورياشها ، وزينتها الفانية ، ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم ، ولا معتبرين بما نصب الله لخلقهم فى الآفاق والأنفس من الحجج المؤدية إلى معرفة توحيدده وصدق رسوله ، فمثلهم مثل البهائم تأكل فى معالفها ومسارحها ، وهى غافلة عما هى بصده من النحر والذبح ، فكذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم ساهون لاهون عن عذاب السعير ، ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد

عذاب مماتهم ، فالمؤمنون عرفوا أن نعيم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات ، وتفرغوا للصالحات ، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم في مقام كريم ، وإن الكافرين غفلوا عن ذلك فرتعوا في الدنيا كالبهائم حتى ساقهم الخذلان ، إلى مقرهم من درك النيران ، أما المؤمن فهو يقسم آماله على معاشه وميعاده ، وقد علمنا القرآن الكريم أن التطلع إلى النعمة والسعادة في كلتا الحالتين هو من أكبر الذكر لله .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ أُمُورٌ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ [سورة البقرة: ٢٠٠: ٢٠٣].

والمعنى : إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع ، والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزلفة ، واذكروه كما هداكم ذكراً حسناً ، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان ، فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين ، الجاهلين بالإيمان ، وشرائع الدين ، ثم انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزلفة ، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم ، وكانوا يقولون : " نحن أهل الله ، وسكان حرمة فلا نخرج منه " ، فيقفون في المزلفة ، لأنها من الحرم ، ثم يفيضون منها ، وكانوا يسمون " الحمس " . فأمر الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي عرفة ثم يقف بها . ثم يفيض منها . واستغفروا الله على ما سلف منكم من المعاصي ، فإن الله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة ، فإذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثرُوا ذكره ، وبالعوا في ذلك ، كما كنتم تذكرون آباءكم ، وتعدون مفاخرهم ، بل أشد .

يقول المفسرون : " وكانوا إذا فرغوا من حجهم وقَفُوا بِمَنَى ، بين " المسجد " و" الجبل " ، فيذكرون مفاخر آبائهم ، ومحاسن أيامهم ، فَأَمْرُوا أَنْ يُبَدِّلُوا ذَلِكَ بِذِكْرِ اللَّهِ ، وَذَكَرَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ ، وَشَكَرَ مَا أَسَدَاهُ إِلَيْهِمْ مِنْ مَفَاخِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، إِنَّ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . الإِشَارَةُ : إِذَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ عَلَى جَبَلٍ عَرَفَةَ (المعارف) ، وتمكنت من شهود جمال معاني تلك الزخارف ، حتى صارت تلك المعاني هي رِيحَهَا وَسِرَّهَا ، وَإِلَيْهَا مَالَهَا وَمَسِيرُهَا ، أُمِرَتْ بِالنُّزُولِ إِلَى أَرْضِ الْعِبَادِيَّةِ ، وَالْقِيَامِ بِوُضَائِفِ الرَّبُّوبِيَّةِ ، شُكْرًا لِمَا هَدَاهَا إِلَيْهِ مِنْ مَعَالِمِ التَّحْقِيقِ ، وَمَا أَبَانَ لَهَا مِنْ مَنَارِ الطَّرِيقِ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَبْلِهِ لِمَنْ الضَّالِّينَ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

ومن الناس من تكون الدنيا همه ، فيقول : " اللهم اجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة " ، وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ، ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة ، وهو المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خير ، وصدقت كل شر ، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة ، والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك ، والحسنة في الآخرة تنتظم الأمن من الفزع الأكبر ، تيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم . وما إلى ذلك من ألوان النعيم التي لم تسمع بها أذن ، ولا تخطر على قلب بشر ، ولم ترها عين . وهؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات ، والله سريع الحساب ، يحاسب الخلائق بقدر لمحة البصر .

وقد جاء في النصح " لقارون " ما يؤكد العمل للحياتين معاً ، فإن الدنيا وسيلة ومعبر للآخرة ، وصحة الوسيلة ضمان لنجاح القصد ، كما أن انتظام المقدمات مؤد إلى تحصيل النتيجة المطلوبة . ومن ثم تَصَمَّنَ إِرْشَادَ اللَّهِ " لقارون " هذه المعاني كلها ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي

الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [سورة القصص: ٧٧]. والمعنى : واستعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والخير الوفير ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ وَهُوَ عِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَقِرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ " (١) . ثم يؤكد القرآن الكريم على بني الإنسان أن المسلم لا ينسى حظه من الدنيا ومن لذاتها ، وذلك فى مآكلها ومشربها وملابسها ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً .

وروى عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : " أعمل لذيالك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " . وعن الحسن أنه قال : " قدم الفضل ، وأمسك ما يبلغ " . وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليك فيما أسبغ عليك من نعمه وفضله ، فأبين خلق الله بمالك وجاهك وحسن لقاءهم ، والثناء عليهم فى غيبتهم ، ولا تصرف همتك بما أنت فيه من نعم أنعمها الله عليك إلى الفساد فى الأرض ، والإساءة إلى خلق الله ، حيث إن الله - سبحانه وتعالى - لا يكرم المفسدين فى الأرض ، بل يهينهم ويبعدهم من حظيرة قربه ، ونيل رحمته ومونته .

ولكن " قارون " مع كل هذه المواظب أبى وزد فى الجحود والعناد وكفران النعمة فقال : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [سورة القصص: ٧٨]. فالإسلام يوصى المسلم ألا يكون عبداً لشهواته ، وأسيراً لنزواته ، يعيش فى الدنيا ليأكل ، فذا ما حرم ذلك امتقع لونه ، وأريد وجهه وتغيرت ملامح وجهه ، وحسب أن الأيام ضده .

وقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " أكثر الناس شبيعا في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة " (١) . والمعروف أن عدداً كبيراً من الأمراض ينشأ عن امتلاء المعدة بما لا تطيق هضمه . يقول - صلى الله عليه وسلم - : " المعدة بيت الداء ، ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث شرابه ، وثلث لنفسه " . وحدث أن أضاف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً كافراً ، فأمر له بشاة فحلبت فنشرب حلابها ، ثم أخرى فنشرب حلابها ، ثم شرب حلاب سبع شياه ، ثم أصبح فأسلم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ، فحلبت له فنشرب حلابها ، ثم أمر له بأخرى فلم يستتمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المسلم يشرب في معي واحد ، والكافر في سبعة أمعاء " (٢) . وبذلك ترى الفارق بين الجاهلية والجاهلين ، ورعة الإسلام ، بل المقصود هنا هو " القصد والاعتدال " في كل شيء .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٩٣] . وقد رأينا كرم أبى الأنبياء " إبراهيم " - عليه السلام - مع ضيوفه ، فقد بادر بذبج عجل سمين لهم ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [٢٤] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ [سورة الذاريات: ٢٧] . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه في حياتهم الخاصة ينزون عند قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

1- رواه البزار .

2- رواه مسلم .

﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

[سورة المائدة: ٨٧، ٨٨]. وقد نعى الله على قوم ولعهم باللذائذ، وامتنانهم بالمرح واللهو، وانحصارهم في مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلى، فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ طَبِيبَتُهُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَا كُنْتُمْ تُفْسِقُونَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٠]. وعندما يلقون عقوبتهم يذكرن بأن ذلك لفقدانهم "العفاف والقصد" وانطلاقهم مع الغواية والمجون: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [سورة غافر: ٧٥].

والحق أن سبب تصدع الدولة الإسلامية يرجع إلى ضياع "العفة والقصد" وشيوع اللذات، وقد حذر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته من هذا الانحلال النفسي. فعن أبي برزة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إنما أخشى عليكم شهوات الغنى في بطونكم وفرءجكم، ومُضِلَاتِ الهوى" (١). أجل إن التوسط هو لبُّ الفضيلة، ومن الواجب على المسلم أن يسخر ما يملكه في هذه الحياة لبلوغ المثل العليا، لا للانغماس في الدنيا، ولا أن تحرم من الحياة أصلاً، فتقع ملوِّمٌ محسوراً.

وهذا ما عناه النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيته، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار يقدومه فوافته صلاة الصبح مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما انصرف تعرضوا له فتبسّم حين رآهم وقال «أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء». قالوا أجل يا رسول الله. قال «فأبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله ما أظنّ أخصى عليكم، ولكن أخصى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان

قَبْلَكُمْ ، فَتَنَّا فُسُوها كَمَا تَنَّا فُسُوها وَتُلهِيكُمْ كَمَا أَلَهَتْهُمُ » (١) . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالتَّوَدُّهُ وَالْإِقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ " (٢) .

هذه هي أخلاق القرآن الكريم . ومنها " القصد والعفاف " ، ومن صور القصد : القصد في كل شيء حتى " المشي " . يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿ [سورة لقمان: ١٨: ١٩] . وهو منهج إسلامي لو استمسك به المسلمون لسعدوا في الدنيا وفازوا برضوان الله تعالى في الدار الآخرة ولنعم دار المتقين . أصحاب " القصد والعفاف " . والمراد بالقصد هو: الاعتدال في كل شيء يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَبْيَخُرْ آدَمَ خُدُوءَ زِينَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (٣١) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٣٧) [سورة الإسراء: ٢٦: ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المؤمنون: ٥١] .

1 - رواه البخارى .

2 - رواه الترمذى .

النظافة والتجميل والصحة

إن صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التي وجه الإسلام إليها عناية فائقة ، وَعَدَّهَا من صميم رسالته ، ولن يكون الشخص راجحاً في ميزان الإسلام ، محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمه بالنظافة والتشذيب ، والتهديب وكان نظيفاً في مأكله ، وفي مشربه ، وفي ملبسه ، وهيئته الخاصة ، بمنأى عن الأحوال المنفرة ، وإن النظافة صلاح للمسلم في كل أحواله ، والنظافة لها كبير الأثر في تزكية النفس ، وتمكين المسلم من النهوض بأعباء الحياة ، وما أحوج أعباء الحياة إلى الجسم القوى والبدن القوى الصبور . وهذه الأمور من أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فقد كرم " القرآن " البدن وكذلك السنة النبوية الكريمة ، وجعل طهارته أساساً لا بد منه لكل صلاة وجعل الصلاة واجبةً " خمس مرات " في اليوم واللييلة ، وكلف المسلم بغسل بدنه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك مثل " الغسل من الجنابة " وفي يوم الجمعة " .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [سورة المائدة: ٦] . والمعنى : إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا الوجوه والأيدي من المرافق ، وامسحوا رؤوسكم ، واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ، يعنى معهما .

يقول " الزمخشري " : " فجيء بالغاية إمطة لظنّ ظانّ يحسبها ممسوحة، لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة . وعن علي - رضي الله عنه - : أنه أشرف على فتية من قريش فرأى في وضوئهم تجوزاً ، فقال : " ويل للأعقاب من النار " ، فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلًا ويدلكونها دلكاً . وعن ابن عمر قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح فقال : " ويل للأعقاب من النار " . وهذا الحديث يرد على " الامامية " الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسح لا الغسل ، والآية صريحة لأنها جاءت " بالنصب " فهي معطوفة على الغسل ، وجيء بالمسح بين الغسولات لإفادة الترتيب ، وإن كنتم في حاله جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن .

ويقول " المراغي " في تفسيره لهذه الآية : " إذا أردتم القيام إلى الصلاة على حد قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [سورة النحل: ٩٨] . بمعنى أن إذا أردت قرأته وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام إلى الصلاة إلا إذا كان محدثاً ، أي إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأمسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعيبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وهذا التقيد مستفاد من السنة العملية في الصدر الأول .

فقد روى " احمد " و " مسلم " وأصحاب السنن من حديث " بِنِ بُرَيْدَةَ عَنِ أَبِيهِ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَيْهِ وَصَلَّى الصَّلَاةَ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ . قَالَ « إِنِّي عَمَدًا فَعَلْتُ يَا عُمَرُ » (١) .

وروى البخاري وأصحاب السنن عن " عمر بن عامر " الأنصاري سمعت أنس بن مالك يقول : " كان النبي -صلى الله عليه وسلم- : يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ،

قَالَ : قُلْتُ : فَأَنْتُمْ ، كَيْفَ تَصْنَعُونَ ؟ قَالَ : كُنَّا نُصَلِّي الصَّلَاةَ بَطْهَرٍ وَاحِدٍ مَا لَمْ نَحْدِثْ (١) .

وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً : " لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ " . فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - يتوضؤون لكل صلاة ، وإنما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتوضأً لل صلاة غالباً ، وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك ، ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة ، وهو الأفضل ، وإنما يجب على من أحدث ، وآخر الآية يدل على ذلك ، فإنه ذكر الحَدَثَيْنِ ، ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدها فعلم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما ولو كانت الطهارة واجبةً لكل صلاة لما كان لهذا معنى . والخلاصة إن الوضوء لا يجب إلا على المحدث ، وإنما يستحب تجديده لكل صلاة .

روى مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه يَتَوَضَّأُ فَعَسَلَ وَجْهَهُ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ عَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أُشْرِعَ فِي الْعُضُدِ ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أُشْرِعَ فِي الْعُضُدِ ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ ثُمَّ عَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أُشْرِعَ فِي السَّاقِ ثُمَّ عَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أُشْرِعَ فِي السَّاقِ ثُمَّ قَالَ هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَتَوَضَّأُ . وَقَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « أَنْتُمْ الْغُرُّ الْمُحْجَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ فَمَنْ اسْتِطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحَجَّيْلَهُ » .

وإن كنتم أصابكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها فتطهروا! منها بغسل البدن كله قبل دخولكم في صلاتكم التي قمتم إليها . هذا وقد أوجب الإسلام النظافة من الطعام ويكفي فيه غسل الأيدي ، وهذا نقاء للمرء وأطيب . قال - صلى الله عليه وسلم - : " بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده " (٢) .

1- رواه أنس .

2- رواه ابوداود .

وقد اقترنت نظافة الوضوء ونظافة الطعام في هدى النبي - صلى الله عليه وسلم .
 فعَنْ أَبِي أُيُوبَ ، قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : حَبَّذَا
 الْمُتَخَلِّلُونَ ، قَالُوا وَمَا الْمُتَخَلِّلُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ ، قَالَ : الْمُتَخَلِّلُونَ بِالْوُضُوءِ ، وَالْمُتَخَلِّلُونَ
 مِنَ الطَّعَامِ ، أَمَا تَخْلِيلُ الْوُضُوءِ : فَالْمُضْمَضَةُ ، وَالِاسْتِشْقَاقُ ، وَبَيْنَ الْأَصَابِعِ ، وَأَمَا
 تَخْلِيلُ الطَّعَامِ : فَمِنَ الطَّعَامِ ، إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمَلَائِكِينَ مِنْ أَنْ يَرِيَا بَيْنَ أَسْنَانِ
 صَاحِبِهِمَا شَيْئًا وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّيُ ^(١) . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قَالَ
 « تَسَوَّكُوا فَإِنَّ السَّوَّكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ وَمَا جَاءَنِي جَبْرِيْلُ إِلَّا أَوْصَانِي بِالسَّوَّكَ
 حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفَرِّضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي وَلَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَفَرَّضْتُهُ
 لَهُمْ وَإِنِّي لَأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَحْقِيَ مَقَادِمَ فَمِي » ^(٢) . وفي رواية أخرى : " لقد
 أمرت بالسواك حتى ظننت أنه يترك على فيه قرآن أوحى " . وجل أمراض
 الأسنان واللثة من إهمال نظافتهما ، وبذلك يدرك المسلم مدى اهتمام الإسلام
 بالنظافة والتجميل والزينة .

وفي هذا المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ يَذُنُّ لِيَا أَدَمَ حُدُودًا
 زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة
 الأعراف: ٣١] . والمعنى : البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف
 وكلوا واشربوا ولا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس أو المال إنه لا
 يحب المسرفين المتعدين حدود الله فيما أحل وحرم . ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي
 أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢] .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلم المسلمين أن يعنوا بهذه
 الأمور ، وأن يلتزموها في شئونهم الخاصة حتى يبدوا المسلم في سمته ، وملبسه ،

1- رواه أحمد .

2- رواه ابن ماجة .

وهيئته جميلاً مقبولاً لدى المسلمين . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
 "من كان له شعر فليكرمه" (١) . ودخل عليه رجل تائر شعر الرأس فقال - صلى
 الله عليه وسلم - : "أما وجد هذا ما يسكن به شعره؟" . وعن أبي قتادة قلت :
 يا رسول الله : إن لي جمّة أفأرجلها؟ قال : نعم ، وأكرمها .
 فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين ، من أجل قول رسول الله -
 صلى الله عليه وسلم - فتسريح الرأس سيمّة حسنة ، وتعطيره كذلك . ورأى النبي -
 صلى الله عليه وسلم - رجلاً عليه ثياب وسخة . فقال : "أما يجد هذا ما يغسل به
 ثوبه" ؟ !! .

فإن الأناقة ، والتجمل ، والزينة ، والعطر من تعاليم الإسلام والأخلاق
 القرآنية ، والإرشادات النبوية شريطة أن يكون ذلك في إسراف ، ولا تبذير . قال
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ
 مِنْ كِبِيرٍ » . قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً .
 قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ » . (٢) وفي رواية
 أخرى . عَنْ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسِ الْأَنْصَارِيِّ ، قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ} فَذَكَرَ الْكِبْرَ فَعَظَّمَهُ ،
 فَبَكَى ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ ، فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : مَا يُبْكِيكَ ؟ ، فَقَالَ :
 يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إِنِّي أَحْبَبْتُ الْجَمَالَ ، حَتَّى إِنِّي لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْسُنَ شِرَاكُ نَعْلِي ، قَالَ : فَأَنْتَ
 مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ الْكِبْرُ بِأَنْ تُحْسِنَ رَاحَتَكَ ، وَرَحْلَكَ ، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ سَفَهَ الْحَقَّ ،
 وَغَمَصَ النَّاسَ .

1 - رواه ابو داود .

2- رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم- فقال : يا رسول الله إني رجل حبيب إليّ الجمال وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشارك نعلي أفمن الكبر هذا ؟ .

قال - صلى الله عليه وسلم - : لا ولكن من الكبر من بطر الحق وغمط الناس . وكان - صلى الله عليه وسلم - : إذا رأى مسلماً يهمل تجمل نفسه ، وتنسيق هيئته نهاه عن ذلك ، وأمره أن يرتدى ألبسة أفضل .

وبعض الذين يدعون التدين أو التصوف يحسبون أن ارتداء الملابس الوسخة والمرقعة لوناً من ألوان العبادة والزهد ، وهذا جهل فاضح بل جهالة جهلاء ، وأمّية في الدين نكراء ، فلقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - جميلاً نظيفاً حسن الهيئة وكان أعبد الناس وأخشى الناس ، وأتقى الناس لربه - سبحانه وتعالى - . فعن البراء - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مريوعاً ، وقد رأيت في حلة حمراء ما رأيت شيئاً أحسن منه قط " (١) .

وعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله - تعالى - طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا بيوتكم ، ولا تشبهوا باليهود التي تجمع الأكباء في دورها " (٢) .

وإماطة الأذى عن الطريق لون من ألوان النظافة وشعبة من شعب الإيمان ، والأذى هو : شوّك أو حجارة ، أو نجاسة ، أو ما إلى ذلك مما يؤذي المسلم ويعوق الطريق وينشر الرائح الكريهة . إن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية ، حيث إن الإسلام يتطلب أجساماً تجرى فيها دماء العافية ، ويمتلئ أصحابها نشاطاً وقوةً ، وصحةً وفتوةً . والجسم السليم له

1- رواه مسلم .
2- رواه الترمذی .

كبير الأثر في سلامة التفكير، وفي تفاؤل الإنسان مع الحياة والناس، وذلك قوة للأمة وعزة للدين. وقال حكيم: "العقل السليم في الجسم السليم". ومن هنا حارب الإسلام "المرض" ووضع العوائق أمام جراثمه حتى لا ينتشر فينتشر بانتشاره الضعف والترخي والتشاؤم.

ويقول حكيم: "الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى". ومما لا ريب فيه إذا كان شباب الأمة صحيحاً قوى الأبدان يستطيع إذا نادى منادى الجهاد أن يلبي للذود عن الأرض، والدفاع عن العرض، وبسواعدهم القوية، وأبدانهم الفتية تعيش الأمة في عزة وكرامة، وسؤدة ومجد.

وأمرنا الإسلام للحفاظ على الصحة بالتداوى فقال - صلى الله عليه وسلم - : " ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء" ^(١). وقال - عليه الصلاة والسلام - : " إن لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله" ^(٢). قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء: ٨٠]. وللحفاظ على الصحة، وعدم انتشار الأوبئة ينبه النبي - صلى الله عليه وسلم - على ذلك فعن جابر - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أنه نهى أن يُبَالَ في الماء الراكد" ^(٣). وعنه أيضاً أنه - عليه الصلاة والسلام - : " نهى عن أن يبال في الماء الجاري" ^(٤). وعن معاذ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أنقوا الملاعن الثلاث البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل" ^(٥). والمعنى: أن هذه الأمور تجلب على فاعلها اللعنة، والذي

1- رواه البخاري .

2- رواه مسلم .

3- رواه مسلم .

4- رواه الطبراني .

5- رواه ابوداود .

يفعل هذه الأشياء إنسان ساقط المرءة . وقال – عليه الصلاة والسلام – : " من أنى المسلمين فى طرقهم وجبت عليه لعنتهم " (١) .

وفى رواية أخرى : " من غسل سخيمته على طريق من طرق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " (٢) وهذه الأمور المنهى عنها هي سبب انتشار الأمراض ، والأوبئة لدينا نحن المسلمين ، إذ أن الناس استخفوا بهذه الأمور واستهانوا بها فجرت عليهم الأمراض المتوطنة . وقد وضع الإسلام قواعد الحجر الصحي ، فإذا ظهر مرض فى بلد ما من البلاد وضرب حوله حصاراً شديداً ، فمنع الدخول فيه والخروج منه . لمحاصرة المرض حتى لا ينتشر أو يعم جميع البلاد .

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إذا سمعتم بالطاعون ظهر بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها تخرجوا منها " (٣) . وهنا تظهر عظمة الإسلام حيث أنه اكتشف بل نبه على الحجر الصحي ، وأرشد إليه العالم كله فقد عرفه الإسلام قبل أطباء الكرة الأرضية . نعم : إنه الإسلام العظيم . وقد واسى الإسلام سكان البلد الموبوء ، وحبب إليهم المكث فيه ولهذا قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ما من عبد يكون فى بلد فيه الطاعون فيمكث فيه لا يخرج صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد " (٤) . إن الأخذ بالأسباب حق ، وهو القدر كما يقول سيدنا " عمر " – رضى الله عنه – وقد شرع الإسلام التحرز من العدوى . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا يورثن ممرض على مصح " (٥) .

- 1 - رواه الطبراني .
- 2 - رواه البيهقي .
- 3 - رواه البخاري .
- 4 - رواه البخاري .
- 5 - رواه البخاري .

وقال – عليه الصلاة والسلام – : " فِرَّ مِنَ الْمَجْزُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ " (١) .
ولو أن كل عدوى تصيب لهلك من فى الأرض جميعاً ، فهناك كما يقول الأطباء .
ظرف معقدة للإصابة عن طريق العدوى ، وهذا معنى الحديث : " لا عدوى ، ولا
طيرة " . والمعنى لا عدوى موجودة إلا بإذن الله . وليس النفي منصباً على إنكار
حقيقة العدوى لأن آخر الحديث يمنع ذلك وهو قول الرسول – صلى الله عليه
وسلم – بعد ذلك مباشرة : " وفر من المجزوم فرارك من الأسد " . أجل : هذا هو
الإسلام بعظمته يحرص كل الحرص على سلامة الإنسان ، والأخذ بيده إلى وسائل
وأسباب النظافة والتجمل والصحة . (٢)

1 - رواه البخاري .
2- صفوة التفاسير ج ١ ، ص ٤٤٣ .

الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن

كل مفقود عسى أن تسترجعه ، إلا الوقت ، فهو إن ضاع لم يتعلق بعودته أمل ، ولذلك كان الوقت أنفس ما يملكه الإنسان ، وكان على العاقل أن لمستقبل أيامه استقبال الضنين للثروة الرائعة ، ويجتهد أن يضع كل شيء مهما ضوّل ، موضعه اللائق به .

وفى الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن يقول الحق - سبحانه وتعالى - :
﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [سورة يونس: ٤٥] . والمعنى : واذكريوم جمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا فى الدنيا إلا ساعة من النهار ، وذلك لهول ما يرون من أهوال والفظائع التى يشيب لها الوالدان يوم تقوم الساعة ، ويقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ، وفى ذلك اليوم يعرف بعضهم بعضا كما كانوا فى الدنيا ، وهوتعارف توبيخ وتهكم وسخرية ، واستهزاء واقترضاح ، يقول الواحد منهم للآخر : " أنت أعويتني وأضلللني " ، وليس تعارفهم فى ذلك اليوم تعارف محبة ومونة . وبهذا يكون هؤلاء الظالمون قد خسروا حقاً ، حيث إنهم كذبوا بالبعث والنشور ويوم الجزاء ، وما كانوا موفقين للخير فى هذه الحياة الدنيا ، ما كانوا مهتدين .

ويقول صاحب اللطائف : " الأيام والشهور ، والأعوام والدهور بعد مضيها فى حُكْمِ اللَّحْظَةِ لِن تَفَكَّرَ فِيهَا ، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتى من الوقت قريب ، وكأَنَّ قَدْرَ الْمَاضِي مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يُعْهَدْ .

يقول " ابن كثير - " رحمه الله تعالى - : " يقول تعالى مُذَكِّرًا لِلنَّاسِ قِيَامَ السَّاعَةِ وَحَشْرَهُمْ مِّنْ أَجْدَانِهِمْ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ : كأنهم يوم يوفونها لم يلبثوا فى الدنيا { إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ } كما قال تعالى : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْعِهِمْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً

أَوْصَحُّهَا}، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾
 يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
 طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة طه: ١٠٢: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ
 السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ
 وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الروم: ٥٥: ٥٦]. وهذا كله دليل على
 استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ
 سِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
 لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١١٢: ١١٤].

وقوله: { يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ } أي: يعرف الأبناء الآباء والقربات بعضهم
 لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا
 أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١٠١]. وقال تعالى:
 ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠١﴾ يُصِرُّونَهُمْ لِيُبَدِّلَ الْمُجْرِمَ لَوْ يُفْتَدَى مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَيْنِهِ
 ﴿١١١﴾ وَصَدَّجَتْنَاهُ وَأَخِيهِ ﴿١١٢﴾ وَفَصَّلْنَاهُ إِلَى تَوْبِهِ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١١٤﴾﴾
 كَلَّا ﴿[سورة المعارج: ١٠: ١٤]. وقوله: { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا
 مُهْتَدِينَ } كقوله تعالى: { فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ } . لأنهم خسروا أنفسهم وأهلبيهم
 يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة
 أعظم من خسارة من فرَّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

ويقول الله - تعالى - أيضا فى هذا المعنى وهو" الانتفاع بالوقت والاتعاض
 بالزمن": ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ
 يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة طه: ١٠٣: ١٠٤]. والمعنى:
 يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر،
 وهم زرق العيون، سود الوجوه. يقول القرطبي: " تشوه خلقتهم بزرقه عيونهم

وسواد وجوههم " ، يتهامسون بينهم ، ويسرعون بعضهم إلى بعض قائلين : " ما مكتتم في الدنيا إلا عشر ليالٍ " .

يقول أبوالسعود في تفسيره : " استقصوا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال . " ﴿١١٣﴾ **مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا** . أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم ، إذ يقول أ عقلهم ، وأعدلهم قولاً : ما لبثتم إلا يوماً واحداً . ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله : " وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبةً وصمتاً وخشوعاً . فالكلام همس . والسؤال تخافت . والخشوع ضافٍ . والوجوه عانية . وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين . ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله . والعلم كله لله . وهم لا يحيطون به علماً . والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة . والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات . إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه ، في حضرة الرحمن - سبحانه وتعالى - .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى** ﴾ [سورة النازعات: ٤٦] . والمعنى : كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال ، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً من نهار ، بمقدار عشية أو ضحاها . يقول الإمام " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " أي : إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم . قال ابن عباس : { **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى** } أما عَشِيَّةٌ : فما بين الظهر إلى غروب الشمس ، { **أَوْ ضُحًى** } ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار . وقال قتادة : وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

ويقول المراغى في تفسيره : " إنهم ظنوا لم يلبثوا إلا عشية يوم أو ضحى تلك العشيّة ، وتقول العرب : " آتيك العشيّة لو غداتها " ، وآتيك الغداة أو عشيتها ،

والمراد أنهم يستقصرون مدة لبثهم ، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أوأوله". إن هذا الإحساس على ما به يخدع الذين توهموا الخلود في الأرض ، وربطوا مصيرهم بتربها ، وهو إحساس صادق إذا قيست أيام الدنيا بأيام الآخرة . ولكنه إحساس مخدوع مضل لمن مرت به الأصباح ، والأمسيات ، وكرت عليه الشهور والدهور ، وغدا ، وراح ، وتعب ، واستراح ، ومع ذلك فهو في غفلة عن يومه وغده ، ظل يعبت ويسترسل في عبثه ، حتى إذا استرخت أجانحه على عينيه ، ودخل ظلام الموت ، تيقظ بعنف ! وهيهات !! لقد صحا بعد فوات الوقت .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَأَلَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المجادلة: ٦].
والمعنى : واذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيد واحد فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام فقد ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم ، بينما نسوا تلك الجرائم وذلك لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء وهو- سبحانه وتعالى - مُطلع لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه شيء قال تعالى : "يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى" . ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر: ١٩]. ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَن أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [سورة الرعد: ١٠].

ويقول صاحب اللطائف : " إذا حُوسِبَ أَحَدٌ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى عَمَلِهِ تَصَوَّرَهُ مَا فَعَلَهُ وَتَذَكَّرَهُ ، حتى كأنه قائمٌ في تلك الحالة عن بساط الرِّبَّةِ ، فيقع عليه من الخجل والندم ما ينسى في جنبه كُلُّ عَقُوبَةٍ . فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاة ، فإن جَرَى المقدورُ ووقَعَ في هيئة التقصير فلنكن زلته على بَالٍ ، وليتضرع إلى الله بحسن الابتهاال .

ويقول المراهى فى تفسيره، فى معنى هذه الآيه : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المجادلة: ٦]. أى واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيراً لهم وخزياً على رؤوس الأشهاد والله قد حفظه وضبطه وهم قد نسوه ، والله شاهد على كل شيء فلا يغيب عنه شيء ، ولا ينسى شيئاً ، وفى هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم ، والتنديم ، ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب إنما كان من جزء أعمالهم ، وقبيح أفعالهم .

إن الإسلام دين يعرف قيمة الوقت ، ويقدر خطورة الزمن ويؤكد تلك الحكمة القائلة : " الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك " . ويجعل من دلائل الإيمان وأمارات التقى أن يعي المسلم هذه الحقيقة ويسير على هداها .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً

وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: ٦]. ويعد الذين يزهلون عن غدهم ، المشغولون فى حاضرهم ، المفتونون ببهرج الحياة الدنيا الكاذب ، وزخرفها الخداع فهم قوم خاسرون سفهاء .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [سورة يونس: ٧]. ونرى الإسلام يوزع العبادات الكبرى على أجزاء اليوم ، وفصول العام ، فالصلوات الخمس تنتظم اليوم كله ، وقد نزل سيدنا جبريل - عليه السلام - من عند الله ليرسم أوائل الأوقات وأواخرها ليكون من ذلك نظام محكم ودقيق يرتب الحياة الإسلامية ، ويقيسها بالدقائق من مطلع الفجر إلى غروب الشمس .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الروم: ١٨]. إن النظر القاصر يعرف من الزمن آثاره المحدودة ، ومظاهره المحسوسة .

يقول الشاعر :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيرِ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ

ويقول آخر :

وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ امْرِئٍ وَسِرُّ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ الْخَفِيِّ

والزمن فرصة لإيقاظ الأذكىاء وذلك لفعل الخير، وإسداء المعروف واغتنام الوقت ، والإفادة منه في تقديم كل معروف ، قال - تبارك وتعالى - : ﴿ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [سورة الفرقان: ٦١: ٦٢]. والإسلام ينظر إلى قيمة الوقت في كثير من أوامره ونواهيه فعندما جعل الإعراض عن اللغو من معالم الإيمان كان حكيماً في محاربة طوائف المتبطلين الذين ينادى بعضهم بعضاً : " تعالى نقتل الوقت بشيء من التسلية ، وما درى الحمقى أن هذا لعب بالعمر ، وأن قتلَّ الوقت على هذا النحو إهلاك للفرد ، وإضاعة للجماعة .

ومن الحكم التي تغيب عن بال الجماهير : " الواجبات أكثر من الأوقات ، " الزمن لا يقف محايداً ، فهو إما صديق ودود ، أو عدو لدود " . وكلمات " الحسن البصري " - رحمه الله - : " ما من يوم ينشق فجره إل نادى منادٍ من قبل الحق : " يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح فأنى لا أعود إلى يوم القيامة " .

وهذه الحكم تنبع من الحياة الأولى للحياة الكبرى ، يعنى من الدنيا إلى الآخرة . ومن فضل الله - عزوجل - أن يوفق المسلم لإستغلال ساعات عمره ،

قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة القصص: ٧٣]. ومما يؤسف ويؤسى أن الناس يضيعون أوقاتهم سدى ، بل يسطون على أوقات غيرهم ، قال - صلى الله عليه وسلم - : " نعمتان مغبون كثير فيها من الناس الصحة والفراغ " (١) . ويوجهنا القرآن الكريم إلى التحلي بهذا الخلق وهو استغلال الوقت وعدم إضاعته سدى ، وحثه على مداومة العمل وإن كان قليلا ، وكراهيته للكثير المتقطع . وفي الحديث : " عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - كَانَ يَحْتَصِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّي ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَيُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ حَتَّى كَثُرُوا فَأَقْبَلَ فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا ، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ » (٢) . ومن محافظة الإسلام على الوقت ، حثه على التبكير ، فإن الحرص على الانتفاع من أول الوقت يستتبع الرغبة القوية في ألا يضيع سائره سدى ، واليوم الاسلامي يبدأ بصلاة الفجر ويكره الإسلام السهر الذي يؤخر صلاة الصبح عن وقتها ، وفي الحديث : " اللهم بارك لأمتي في بكورها " (٣) . وإنه لمن الغفلة أن يألف أقوام النوم حتى وقت الضحى فتطلع عليهم الشمس وهم يغطون في النوم على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون في وسائل معاشهم ، ومصالح حصادهم .

وروى عن فاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم - قالت : " مَرَّبِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَضْطَجِعَةٌ مَتَّصِحَةٌ ، فَحَرَكَني بَرَجَلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا بَنِيَّةُ قَوْمِي اشْهَدِي رِزْقَ رَبِّكَ ، وَلَا تَكُونِي مِنَ الْغَافِلِينَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْسِمُ أَرْزَاقَ

1- رواه البخارى ومسلم .

2- رواه البخارى .

3- رواه ابوداود .

الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس» (١). والناس ينظرون إلى الأحداث، ويذهلون عن مرسلها، ويدوتقون السراء والضراء ويجهلون من يذيقهم طعومها، فإذا ضاقوا ذرعاً بأمر ما، لعنوا الأيام وما تفد به، وهذا ضرب من الجهل بالله، والغفلة عن أقداره في عباده.

ومن الاتعاض بالزمن دراسة التاريخ العام، وتتبع آيات الله في الآفاق وتدبر أحوال الأمم، كيف تقوم؟ وكيف تنهار؟ وكيف تنقلب بين ازدهار وانحدار؟ والله - عز وجل - يطلب من الناس أن يلتفتوا إلى هذه الأدوار المتعاقبة، وأن يكون لهم وعى حقيقي يوجههم إلى الانتفاع بها. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦].

فمن أخلاق القرآن الكريم الانتفاع بالوقت، والاتعاض بالزمن، من أجل ذلك ندب الإسلام أبناءه للرحلات، والسياحة، وحبب إليهم الضرب في مناكل الأرض، لا للهو واللعب، بل للعلم والإفادة واستقصاء العبر عن الأحياء والهامدين. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ [١٣٧] هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ [سورة آل عمران: ١٣٨].

ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [سورة غافر: ٢١]. وكذلك يدعون القرآن الكريم إلى دراسة الحضارات البائدة، وعلل فنائها، حتى يتجنب الأخلاق موطن الدلل، التي هوت بالأولين، وكم تكشف مطالعة التواريخ من غرائب.

قال الشاعر :

والليالي من الزمان حبالى متقلات يلدن كل عجيب

إن الزمن آية تعجز العقول عن كشفها ، وما نعرفه إلا بما يخلفه فى المادة من آثار ، ولعل سر الخلود والفناء مطوي لا يعرفه إلا المحيط بظواهره ، وخوافيه . يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ [سورة المؤمنون: ٧٩: ٨٠]. والذي يجب أن نعقله ، أن حياتنا هذه ليست سدى وأن الله أجل من أن يجعلها كذلك . وإذا انتفعنا بمرير الزمن على خير وجه سجلنا لأنفسنا خلونا لا يناوشه الزمن بهرمٍ ولا بلى ، عند الرفيق الأعلى ، هذه أخلاق القرآن الكريم ، والسنة المطهرة " الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن " . (١)

1 - خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي بتصريف .

- صفوة التفسير ، ص ٥٨٦ بتصريف ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ ، ص ٥١٧ .
- لطائف الإشارات ، للتشيرى ج ٢ ص ٩٨ ، ج ٣ ، ص ٥٥٠ وما بعدها .
- تفسير ابن كثير ج ٢ ، ص ٤١٩ .
- تفسير القرطبي ج ١١ ، ص ٢٤٤ .
- تفسير ابى السعود ج ٣ ، ص ٣٢٤ .
- فى ظلال القرآن الكريم ج ٤ ، ص ٢٣٥٢ وما بعدها . ط . دار الشروق .
- تفسير المراعى ج ١٠ ، ص ١٠ ، ٣٧ .

التقوى

من الأخلاق القرآنية التى وجهنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قول الله - عز وجل - : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢]. والمعنى : إن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد - صلى الله عليك وسلم - هو الكتاب الذى لا يعادله كتاب ، وذلك الكتاب بلا شك فى أنه من عند الله ، وذلك لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو هادٍ للمؤمنين المتقين الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : " المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، ويقول " الحسن البصرى " - رحمه الله - : " اتقوا ما حرم الله عليهم ، أدوا ما افترض عليهم " ثم بين صفات المتقين بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِئُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٦].

وفى المعنى ذاته يقول تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٨]. والمعنى : خافوا ذلك اليوم الرهيب الذى لا تقضى فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق ، ولا تُقبل شفاعة فى نفس كافرة بالله أبداً ولا يقبل منها فداء وليس من يمنعهم أو ينجيهم من عذاب الله .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٨]. والمعنى : خافوا ذلك اليوم الرهيب ، الذى لا تغنى فيه نفس عن نفس ، ولا تدفع عنها شيئاً من عذاب الله ، لأن كل نفس بما كسبت رهينة . ورهينة فعيل بمعنى

مفعول أي مرهونة بعملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولا يقبل منها فداء ، ولا تفيدها شفاعة أحد لأنها كفرت بالله ، ولا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يحيدهم من سطوة عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧]

[سورة البقرة: ١٧٧]. والمعنى : إن أهل هذه الأوصاف والتي وردت في هذه الآية الكريمة هم الصادقون في إيمانهم وهم الكاملون في التقوى ، وفي الآية ثناء على الأبرار ، وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيرات حسان . وقد وردت كثرة كاثرة من الآيات التي توجهنا إلى الأخلاق في كتابه العزيز . وتحمل نفس المعنى ، وقد رأينا سر هذه الآيات مكتفين بتفسير بعضها حيث إننا رأينا أن الآيات يعانق بعضها بعضا ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، ومنها قول الله - عز وجل - :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩]

وقوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النُّقُوءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧].

وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٣].

وقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۗ

لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزْعِمُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَعَالَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ [سورة البقرة: ٢٣٣].

وقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨١].

وفى المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿قُلْ أُوْنَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥]. والمعنى : قل لقومك يا محمد - صلى الله عليه وسلم - وقل لغيرهم : أخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره، من النساء والبنين والذى أوماً إليه القرآن الكريم فى قوله : ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرِّ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤].

وجاء الكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب ، وتشويقاً إليه ، وقوله " خير " يشعر بأن تلك الشهوات خير فى ذاتها ، ولا ريب فى ذلك إذ هى من أجل النعم التى أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر منها كما يعرض فى سائر نعم الله على عباده مثل " الحواس ، والعقول " وغيرها فما مثل المسرف فى حب النساء حتى امرأته حق غيرها ، أو يهمل لأجلها تربية ولده إلا من يستعمل عقله فى استنباط " الحيل " لينتدب حقوق الناس ويؤذيهم ، فسلوك الناس فى الانتفاع بالنعم لا يدل على أنها هى فى ذاتها شر ، ولا كون حبها شراً مع القصد والاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة الإسلامية . ثم أجاب عن هذا الاستفهام

فقال: ﴿ قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۗ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنٰتٌ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِالْعٰبِدِ ۝۱۵﴾ [سورة آل عمران: ١٥]. والمعنى: للذين أختبوا إلى ربهم وأنابوا إليه نوعان من الجزاء:

أحدهما: جسماني: وهو الجنات، وما فيها من النعيم والخيرات والأزواج المبرأة من العيوب التي توجد في نساء الدنيا خلقاً وخلقاً.

ثانيهما: روحاني وعقلي: وهو رضوان الله الذي لا يشوبه سخط، ولا يعقبه غضب، وهو أعظم اللذات كلها في الآخرة عند المتقين.

وفى الآية إيماء إلى أن أهل الجنة مراتب وطبقات كما نرى ذلك في الدنيا فمنهم من لا يفقه لرضوان الله معنى، ولا يكون ذلك باعثاً له على فعل الخير، وترك الشر، وإنما يفقه اللذات الحسية التي جربها في الدنيا ففى مثلها يرغب. ومنهم من ارتقى إدراكه، وعظم قرينه من ربه، فيتمنى رضاه، ويجعله الغاية القصوى، والسعادة التي ليس وراءها سعادة.

وفى نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اِنِّسَاْءَ اٰمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿ الصّٰدِقِيْنَ وَالصّٰدِقٰتِ وَالْقٰنِتِيْنَ وَالْقٰنِتٰتِ وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُنْفِقٰتِ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْاَسْحٰرِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٧]. وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ بَلَىٰ مَنْ اَوْفٰى بَعْدَهٗ وَاَتَقٰى فَاِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ ۝۷۶﴾ [سورة آل عمران: ٧٦]. وقوله تعالى: ﴿ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تَقٰوٰهٖ وَلَا تَمُوْنُوْا اِلَّا وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ۝۱۰۲﴾

[سورة آل عمران: ١٠٢]. والمعنى: يجب عليكم أيها المؤمنون تقواه حقاً، وذلك بأن تقوموا بالواجبات، وتجتنبوا المنهيات، ومثلها قوله تعالى: " فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ". يعنى: بالغوا في تقواه جهد المستطاع.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - : " تقوى الله هي : هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويذكر فلا يكفر . " . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " اتقوا الله حق تقاته " ، قال : " حق تقاته " ، أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط و لو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم، وأمهاتهم ، ولا تموتن إلا ونفوسكم مخلصه لله ، ولا يجعلون شركاء لسواه .
يعنى : لا تكونن على حال سوى الإسلام إذا أدرككم الموت والمراد : استمروا على الإسلام ، وحافظوا على أداء الواجبات ، وترك المنهيات حتى تأتكم المنية .

ويتحدث القرآن الكريم عن الأخلاق ، ويعد التقوى خلقاً من أخلاق القرآن الكريم فيقول تعالى فى ذات المعنى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝۱﴾ [سورة النساء: ۱] . والمعنى : احذروا عصيان من ربكم بإحسانه ، وتفضل عليكم بجلوه وإنعامه ، وجعلكم أقرباء يجمعكم نسب واحد ، وأصل واحد . وجمهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا " آدم " - عليه السلام - وهم لم يأخذوا هذا من نفى الآية بل أخذوها تسليماً ، وهو أن " آدم " أبو البشر فإن ذلك من المسلمات التى لا يرتاب فيها أحد ، قال - صلى الله عليه وسلم - : " كلكم لآدم وآدم من تراب " . وقال تعالى : " يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوداً زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ " .

ويقول القفال : " هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية ، فلما تعشى الزوج زوجته وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً ل نكون من الشاكرين لآلائك ونعمائك . فلما آتاها الله ولداً صالحاً سوياً ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها ، لأنهم تارةً ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين ، وتارةً إلى الكواكب كما هو قول المنجمين ، وتارةً إلى الأصنام

والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام . أو أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وهم " آل قصي " ، والمراد من قوله : هو الذي خلقكم من نفس " قصي " وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي جعل له شركاء فيما آتاها حيث سمياً أولادهما الأربعة بعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد قصي ، وعبد اللات ، وجعل الضمير في { يُشْرِكُونَ } لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك .

ويقول بعض العلماء : أيهم الله تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها ، فلندعها على إيهامها ، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أياً كان ذلك غير مخالف لكتابتنا ، كما هو مخالف للتوراة التي نصت صراحةً على أن آدم أبو البشر ، فحمل ذلك الناس على الطعن في كونها من عند الله .

ويقول الأستاذ الإمام " محمد عبده " : " إن ظاهرة الآية يابى أن يكون المراد بالنفس الواحدة " آدم " لوجهين :

أولاً : البحث العلمي والتاريخ المعاصر لذلك .

ثانياً : إنه قال : " رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً " ولم يقل : " الرجال والنساء " . ولكن ليس في القرآن الكريم ما ينفي هذا الاعتقاد ، ولا ما يثبتته إثباتاً قاطعاً لا يحتمل التأويل ، وما جاء من مخاطبة الناس بقوله : " يَبْنِيْءَ آدَمَ " . لا يُعَدُّ نَصاً في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة هذا الخطب أن يكون من وجه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم . ونحن نرى أن المراد في جميع ما ورد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يدل على أن المراد بقوله : " يَبْنِيْءَ آدَمَ " . جنس البشر ، وأن جميعهم ينتسبون إلى آدم ، يدل على ذلك ما جاء في قوله - صلى الله عليه وسلم - : " كلكم لآدم ، وآدم خلق من تراب " . " لا فضل على عربي ولا عجمي ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى " .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - في نفس المعنى : ﴿ إِن مَّجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٣١]. والمعنى : إن تركوا جانبا كبائر ما ينهاكم الله عن ارتكابه من الذنوب والآثام يحو عنكم صغائرهما ، فلا تؤخذكم بها . وقد اختلف العلماء في عدد الكبائر فقليل هي " سبع " . وذلك لما ورد في الصحيحين : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا هُنَّ قَالَ « الشِّرْكَ بِاللَّهِ ، وَالسُّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ » وفي رواية أخرى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ - رضي الله عنه - قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - : « أَلَا أَنْبُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ » . ثَلَاثًا . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . وَجَلَسَ وَكَانَ مُكْنَأً فَقَالَ « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ » . قَالَ فَمَا زَالَ يُكْرَرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ . وفيها أيضا من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » . قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ » .

والأحاديث الصحيحة مختلفة في عددها ، ومجموعها يزيد على سبع . ومن ثم قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " هي إلى سبعين أقرب إذ لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار . ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استنشاطة غضب أو ثورة شهوة وصاحبه متمكن من دينه يخاف الله ولا يستحل محارمه فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى . إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجترحه تهاونا بالدين ، إذ هو بعد اجترأحه يندم ، ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى ، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله فهو إلى ذلك أهل إلى أن يتوب الله عليه ويكفر عنه ، وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون

بالأمر، وعدم المبالاة بنظر الله إليه ، ورئيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيراً فى صورته أو فى ضرره يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار ، فتطفيف الكيل والميزن ولو " حبةً لمن أعتاده ، والهمز واللمز لمن تعوده كل ذلك كبيرة ولا ريب فيه ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يذكر فى كل مقام ما تمس إليه الحاجة ، ولم يره الحصر والتحديد ، ونحن إلى هذا أميل .

ويقول بعض العلماء : " الكبيرة هى كل ذنب رتب عليه الشارع حداً ، أو صرح فيه بوعيد ، ثم يقول - سبحانه وتعالى - : " وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا " . يعنى : وندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تقول : " أرض كريمة ، وأرض مكرمة " . يعنى طيبة جيدة النبات ، قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّتِ وَعَيْونِ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزِ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ [سورة الشعراء: ٥٧: ٥٨].

وبمضى القرآن الكريم فى الحث على الأخلاق الفاضلة : فيقول تعالى : ﴿ وَإِن أُمَّرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ [سورة النساء: ١٢٨].

وفى ذات المعنى : يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ [سورة النساء: ١٣١]. ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ [سورة المائدة: ٣٥]. والمعنى : يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهى إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف على المحارم ، وترك المنهيات ، وقد قال بعدها : { وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } قال سفيان الثوري ، حدثنا أبي ، عن طلحة ،

عن عطاء، عن ابن عباس: أي القربة. وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي، وابن زيد.

وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً: علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري، من طريق محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وأبعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة".

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة." وحديث آخر: قال الإمام أحمد عن أبي هريرة؛ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " إذا صليتم عليّ فسلوا لي الوسيلة". قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: " أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجلٌ واحد وأرجو أن أكون أنا هو".

وعن أبي هريرة عنه قال: " صلوا عليّ صلاتكم، وسلوا الله لي الوسيلة". فسألوا، وأخبرهم: " أن الوسيلة درجة في الجنة، ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكونه". وعن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً - أو: شفيحاً - يوم القيامة".

وعن موسى بن وَرْدَان : أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسئلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه . " عن علي بن الحسين الأربلي - مولى سالم بن ثوبان - قال : سمعت علي بن أبي طالب ينادي على منبر الكوفة : يا أيها الناس ، إن في الجنة لؤئتين : إحداهما بيضاء ، والأخرى صفراء ، أما الصفراء فإنها إلى بُطْنان العرش ، والمقام المحمود من اللؤؤة البيضاء سبعون ألف غرفة ، كل بيت منها ثلاثة أميال ، وغرفها وأبوابها وأسرتها وكأنها من عرق واحد ، واسمها الوسيلة ، هي لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأهل بيته ، والصفراء فيها مثل ذلك ، هي لإبراهيم - عليه السلام - وأهل بيته .

وقوله: { وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تُبِيد ولا تُحُول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها يَنعم لا ييأس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

وفى ذات المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المائدة: ٦٥]. وفى نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٨٨] وقول الحق - عز وجل - : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٩٣]. وقال تعالى ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ

وَطَعَامُهُ، مَتَعَا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ [سورة المائدة: ٩٦]. وقال - سبحانه وتعالى - :
﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَأْتُوا
الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٠].

ويضئ القرآن الكريم في الحث على الأخلاق الفاضلة فيقول - سبحانه
وتعالى - ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي
لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٦٩]. والمعنى : إنكم إذا جلستم معهم
وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه . وقوله : { وَمَا عَلَى الَّذِينَ
يَنْقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } أي : إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد
برئوا من عهدهم، وتخلصوا من إثمهم . قال ابن أبي حاتم قوله : { وَمَا عَلَى الَّذِينَ
يَنْقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } قال : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت
ذلك، أي : إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم . وقال آخرون : بل معناه : وإن جلسوا معهم،
فليس عليهم من حسابهم من شيء . وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية،
وهي قوله : { إِنْ كُنْ إِذَا مَثَلُهُمْ } قاله مجاهد، والسُّدِّي . وعلى قولهم ، يكون قوله تعالى :
{ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ } أي : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ
تذكيراً لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعونون إليه.

ويتحدث القرآن الكريم عن الأخلاق فيقول : ﴿ يَبْنَىءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
يُخْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة
الأعراف: ٣٥]. والمعنى : { فَمَنْ آتَقَى وَأَصْلَحَ } شرط وما بعده جوابه وهو جواب
الأول أي وأصلح منكم ما بيني وبينه { فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } دليل على أن
المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ولا يلحقهم رعب ولا فزع وقيل : قد
يلحقهم أهوال يوم القيامة ولكن مآلهم الأمن ، وعدم الخوف من أهوال القيامة ،
وذلك بفضل الله ورحمته .

وفى نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ
ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٦]. والمعنى : ولو أن أهل القرى
آمَنوا وصدقوا واتقوا الشرك لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض يعني المطر
والنبات ، وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق
العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم ألا ترى أنه أخبر عن " نوح " - عليه السلام - إذ قال
لقومه ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ كَمَا إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [سورة نوح: ١٠] يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿
[سورة نوح: ١١]. وعن " هود " - عليه السلام - { ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا } . فوعدهم المطر والخصب على التخصيص يدل عليه { وَلَٰكِن
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } أي كذبوا الرسل والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا ،
ويقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها، مأخوذ من قرية الماء إذا جمعته .

ونحن نرى أن هذه الآية عامة في القرى والحضر في هذا العصر، وفي كل
زمان ومكان فالمؤمنون لو آمنوا بربهم حق الإيمان ، وصدقوا بينهم حق التصديق ،
واتقوا الله - عز وجل - وذلك بالنأي عن المناكر، واقتتراف الآثام ، وارتكاب
الذنوب ، واجترأ السيئات . وراقبوا الله في السر والعلن ليرزقهم الله كما يرزق
الطير تغدوا خماسا وترىح بطانا ، يقول الشاعر :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للتقى مزيد

ويقول أبو العتاهية :

وإذا تناسبت الرجال فما أرى نسباً يقاس بصالح الأعمال
وإذا اتقى الله امرؤ وأطاعه فبداه بين مكارم ومعالم
وعلى النفس إذا ترسخ في التقوى تاجان تاج سكينة وجلال

وفي المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
 اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ
 وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨]. وقال - سبحانه وتعالى - :
 ﴿ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا نَاهِدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَاوِي
 أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْيَاءٍ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦].
 وفي ذات المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ
 الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنفال: ١]. والمعنى : أن التقوى خير غنيمة فهي
 أفضل من غنائم المال ، وغيره من متاع الحياة الدنيا .

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي والعجل .

والنفل : اليمين ، ومنه الحديث " فتبرئكم يهود بنفل خمسين منهم " .
 والنفل الانتفاء ، ومنه الحديث " فانتفل من ولدها " . والنفل - بفتح الفاء - : نبت
 معروف . والنفل - بإسكان الفاء - : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع . وولد الولد
 نافلة ، لأنه زيادة على الولد . والغنيمة نافلة ، لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة
 مما كان محرماً على غيرها . قال - صلى الله عليه وسلم - : " فضلت على الأنبياء
 بست - وفيها - وأحلت لي الغنائم " . والأنفال : الغنائم أنفسها .

قال عنترة بن شداد :

إننا إذا احمر الوغى نرري القنا ونعف عند مقاسم الأنفال

والمراد بالأنفال هنا الغنائم .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
 الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [سورة الرعد: ٣٥]. والمعنى : فهو المتاع والاستراح ومشهد

الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح فى مقابل المشقة هناك : ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء .

ويقول الإمام القشيري : " فى هذه الآية : " المثل " أي الصفة ، فصفة الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار ، وأكلها دائم وظلها دائم ، أي أن اللذات فيها متصلة . وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة ، فالمؤجلة ما ذكره الله - سبحانه - فى نص القرآن ، والمعجلة جنة الومت . . والدرجات - من حيث البسط - فيها متصلة ، ونفحات الأنس لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

هذه الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها وظلها . يعنى : أكلها دائم ، وظلها دائم كذلك ، وتلك منة من الله - سبحانه وتعالى - على عباده المتقين الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويخافونه فى السر والعلن ، وعن ذكره لا يفترن . (١)

وبمضى القرآن الكريم فى الحديث عن الأخلاق فيقول - عز وجل - :

﴿ إِنَّ الْمُنْقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَأَمِينٍ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَتَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الحجر: ٤٥: ٤٩]. والمعنى : إن الذين اتقوا ربهم ، وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه يتمتعون فى جنات تجري من تحتها الأنهار كما قال تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة محمد: ١٥]. ويقال لهم يوم القيامة ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم

١- لطائف الاشارات للقشيري ج ٢ ، ص ٢٣٢ وما بعدها .

وأكرمكم بها ، ولا تخافون إخراجاً ، ولا فناءً ، ولا زوالاً . ومع هذا النعيم كله تخرج ما فى صدور هؤلاء المتقين من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض .

عن أبى إمامة قال : " يدخل أهل الجنة ، الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غلٍّ ، ثم قرأ . " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ " . وقال : لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما فى صدورهم من غلٍّ ، ثم ينزع منه السبع الضاري " . وعن عليٍّ - كرم الله وجهه - : إني لأرجو أن يجعلني الله وأياك من الذين نزع الله ما فى صدورهم من غلٍّ ويجعلنا إخواناً على سرر متقابلين . فقال رجل من همدان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك فصاح عليٌّ كرم الله تعالى وجهه عليه صيحةً تداعى لها القصر ، وقال : فمن إذن إن لم تكن نحن أولئك؟ وقيل : إن ذلك فى الآخرة بعد دخول الجنة .

ومجمل القول : " إن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ، ونزع منهم كل غل ، وألقى فيها المودة والحب والصفاء ، والمراد بكونهم " على سرر متقابلين " أنهم فى رفعة وكرامة ، وقد روى أن الأسرة تدور بهم حيثما داروا ، فهم فى جميع أحوالهم متقابلين ، لا ينظر بعضهم إلى أفضية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادون ، ويتزاورون ويتواصلون ، لا يلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لا بد منه لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولة عمل .

وروى الشيخان أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب " . وهم خالدون فيها لا يبرحونها ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلوة بلا زوال ، وكمال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان ، حيث إن المسرة بالنعيم والتمتع بالذائد لا تتم الا إذا كان مقرئاً بالتعظيم ، ولذلك أشار إلى هذا بقوله : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾

[سورة الحجر: ٤٦] وأن يكون خالصاً من شوائب الضرر، روحانية كانت. مثل: الحقد، والحسد، والغضب، ولذلك كانت الإشارة بقوله: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ". أو جسمانية كالإعياء والتعب، وإلى ذلك الإشارة بقوله: "لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ". وأن يكون دائماً غير قابل للزوال، ولذلك الإشارة بقوله: "وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ".

وقيل المعنى: إن المتقين الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة والعيون المتفجرة بالماء، والسلسبيل، والحُمُر، والعسل، ويقال لهم: "ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم". ومع هذا كله أرننا ما في قلوبهم من الحقد والبغضاء والشنآن والفرك والكرهية حال كونهم أخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء، على سرر متقابلين وجها لوجه.

يقول "مجاهد" - رضي الله عنه - : " لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، زيادةً في الأُنس والإكرام". ويقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، لا يصيبهم في الجنة إعياء ولا تعب، ولا يخرجون منها، فان نعيمهم خالد، وبقاءهم دائم؛ لأنها دار الصفاء والسرور. ويقول الله تعالى مؤكداً هذا المعنى في آيات كثر.... وذلك كقوله تعالى: ﴿يُنزِلُ

الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [سورة النحل: ٢]. ويقول أيضاً - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [سورة النحل: ١٢٨]. ويقول أيضاً - سبحانه وتعالى - : ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [سورة مريم: ٦١] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا فِي بُكْرَةٍ وَعَشِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٢] ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٣]. ويقول أيضاً - سبحانه وتعالى - : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: ٨٥]. ويقول

الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الحج: ١].

والمعنى : هو خطاب لجميع البشر يحذرهم من عذابه ، ويخوفهم من نعمته ، وأن يطيعوه بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وجماع القول في التقوى هو: طاعة الله ، واجتناب محارمه ، ولهذا قال بعض العلماء : " التقوى أن لا يراك حيث نهاك ، وأن لا يفتقدك حيث أمرك " . ثم علل لهذه التقوى والسبب في ذلك فقال : إن الزلزال الذي يكون بين يدى الساعة أمر عظيم ، وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ؛ حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس بسكارى من هول ما يدركهم من الخوف والفرع ، وما هم بسكارى حقيقةً ولكن من عذاب الله الشديد .

يقول " قتادة " - رضي الله عنه - : " إنهم سكارى ليس من خمر شربوه ، طير ألباسهم ، وأذهب عقولهم ، ولكن الذى أسكرهم وأذهب عقولهم ما يشاهدونه من أهوال القيامة ، حيث السماء كسحبت ، والنجوم قد انكدرت ، والجبال كالعهن المنفوش ، والأرض زلزت زلزها ، وأخرجت أثقالها . وحدثت أخبارها ، وألقت ما فيها وتخلت . وفى هذا اليوم أيضا تذهل المرضعة عن رضيعها دون فطام ، وتلقى الحامل ما فى بطنها دون تمام . وذلك كله مما يروونه من أهوال ، ويشاهدونه من فظائع تجعل الولدان شيبا .

ومن الأخلاق القرآنية تعظيم المسلم لشعائر الله فإنها من تقوى القلب ، يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعْبًا اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وقد أمر الله بتقواه ، حيث إنه ربهم الذى رباهم على نعمه ، وكلاهم برعايته ، وحفظهم بقدرته ، وخصهم برحمته ، فناداهم بقوله : إننى أنا ربكم فاتقون ، فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [٥١] وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ [سورة المؤمنون: ٥١: ٥٢]. ويبين الحق - سبحانه وتعالى - أن الفائز فى الدار الآخرة هو الذى يطيع الله ورسوله ويخشى الله ويتقيه، فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ [سورة النور: ٥١: ٥٢]. وهناك كثرة كثيرة من آيات القرآن الكريم تأمر بالتقوى والتخلق بها ، وهى قوله تعالى : " فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا " ، وقد وردت هذه الآية فى سورة الشعراء " ست مرات " . والسابعة قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ [سورة الشعراء: ١٨٤].

لقد بينا قيمة الخلق فى المجتمع الاسلامى وأنها الموصلة إلى حسن العافية فى الدار الآخرة فقال تعالى : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [سورة القصص: ٨٣]. والمعنى : تلك الدار العالية الرفيعة التى سمعت خبرها ، وبلغك وصفها هى دار النعيم الخالد السرمدي ، التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر والطغيان ، ولا الظلم والعدوان فى هذه الحياة الدنيا ، والعاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه ، ويبتغون رضوانه ، ويحذرون عقابه .

ويقول صاحب اللطائف : " العلو فى الدنيا « أَنْ تَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ عَلَى الْبَسِيطَةِ أَحَدًا هُوَ شَرٌّ مِنْكَ . و« الفساد » أن تتحرك لحظَّ نَفْسِكَ ونصيبك ولو بنفَسٍ أو خطوة . وهذا للأكابر ، فأما للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة { نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ { كَعُلُوِّ فِرْعَوْنَ { وَلَا فَسَادًا { كَفَسَادِ قَارُونَ } . ويقال الزهاد لا يريدون فى الأرض عُلُوًّا ، والعارفون لا يريدون فى الآخرة والجنة عُلُوًّا . ويقال { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ { لِلْعِبَادِ وَالرُّهَادِ ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار .

ويضى القرآن الكريم فى مطالبة أهل القرآن بالتحلى بأخلاقه والاستمسك بفضائله ، فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِذْ هَبْنَا قُرْآنَهُ بِالرُّوحِ الْكَافُورِ وَنَزَّلْنَاهُ بِالنُّزُلِ الْمُبِينِ وَتَقْوَاهُ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الروم: ٣١]. وقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزَى وَالِدُ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [سورة لقمان: ٣٣]. وقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ١]. وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧]. وقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أبنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أبنَاءَ أَخَوَاتِهِمْ وَلَا إِسَابِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٥]. وقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠].

ويستمر القرآن فى الحديث عن الأخلاق فيبين أن " التقوى " من الأخلاق القرآنية ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة يس: ٤٥]. والمعنى : يقول " مجاهد " قالى تعالى : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ " أي من الذنوب. وقال غيره بالعكس ، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه. وتقدير كلامه:

أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه. واكتفى عن ذلك بقوله: { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ } أي: على التوحيد وصدق الرسل { إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } أي: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها. (١)

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ ﴿ [سورة ص: ٢٧: ٢٨]

والمعنى : أن المفسدون في الأرض لا يستويون مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كما أنه لا يمكن أن يجعل الله المتقين مثل الفجار فلا بد من دار للفجار وهي النار، ولا بد من دار للمتقين وهي الجنة ، وبذلك أمر لا ريب فيه . وهذا الإرشاد يدل على العقول السليمة ، والفطر المستقيم على أنه لا بد من ميعاد ، وجزء . فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله ، وولده ، ونعمه ، ويموت كذلك . ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزء وتلك المواساة ، ولما كان القرآن الكريم يرشد إلى المقاصد الصحيحة ، والماخذ العقلية الصريحة .

قال تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص: ٢٩]. ويقول الحسن البصري : " والله ما تدبّر، بحفظ حرفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. والله تعالى لا يجعل المحسنين كالمفسدين أبداً . ويقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٣٦) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَنْفَوْنَ ﴿ (١٣٤) ﴾ [سورة الصافات: ١٢٣-١٢٤]

والمعنى : أن تخافوا الله - عزوجل - في عبادتكم غير ، ومن حقق عبادة الله - عزوجل - وعدم الإشراك به ، حيث إنه مربيكم بنعمته والمتفضل عليكم برحمته .

ويبين القرآن الكريم أن حسن المآب والمرجع للمتقين ، فقال تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [سورة ص: ٤٩]. وينادى الله المؤمنين دائماً بلفظ التقوى ، وذلك لنجاتهم فى الدار الآخرة فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة الزمر: ١٠] وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبادُ فَاتَّقُونِ ﴾ [سورة الزمر: ١٦]. وقوله تعالى : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرفٌ مَّبِينَةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [سورة الزمر: ٢٠]. وقول الحق تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٢٧]. ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٥٦]. ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٥٧]. وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٠]. ﴿ وَسِجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦١]. وقوله سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٧٣]. ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [سورة الزمر: ٧٤].

ويقول الحق سبحانه وتعالى - : ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة فصلت: ١٨]. والمعنى : ونجيننا صالحاً الذين آمنوا به من ذلك العذاب . ويبين الله تعالى أن حسن الثواب فى الآخرة والعافية الحسنة فى دار النعيم المقيم حيث إن الآخرة الحقيقية وهى دار الخلد أعدها الله - عز وجل - للمتقين فقال :

﴿وَلَبِئْسَ إِلَهُاً تَدْعُونَ﴾ (٣٤) ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ مَتَاعٌ﴾ (سورة الزخرف: ٣٤: ٣٥).
وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ
وَلَا بَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (سورة الزخرف: ٦٣).
وقوله تعالى : ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧)
[سورة الزخرف: ٦٧]. والمعنى : إن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون
أعداءً إلا من كانت صداقته ومحبته لله . ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - :
" كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوةً إلا ما كان لله ، عز
وجل ، فإنه دائم بدوامه . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : صارت كل صلة عداوة
يوم القيامة إلا المتقين . تشریفاً وتطيباً لقلوبهم فيقول : ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٦٨) . فى هذا اليوم العصيب ،
ولا انتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا " . ويقول صاحب اللطائف : " ما كان لغير
الله فمآله إلا الضياع والأخلاء الذين اصطحبوا على مقتضى الهوى بعضهم لبعض
عدو؛ يتبرأ بعضهم من بعض ، فلا ينفع أحدٌ أحداً .
وَأَمَّا الْأَخْلَاءُ فِي اللَّهِ فَيَشْفَعُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ، وَيَتَكَلَّمُ بَعْضُهُمْ فِي شَأْنِ
بَعْضٍ ، أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ اسْتَنَاهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : {إِلَّا الْمُتَّقِينَ} .
وشرط الخلَّة في الله؛ ألا يستعمل بعضهم بعضاً في الأمور الدنيوية ، ولا
يرتفق بعضهم ببعض؛ حتى تكون الصلحة خالصة لله لا لنصيب في الدنيا ، ويكون
قبول بعضهم بعضاً لأجل الله ، ولا تجري بينهم مهادنة ، وبقدَّر ما يرى أحدهم في
صاحبه من قبول لطريق الله يقبله؛ فإن علم منه شيئاً لا يرضاه الله لا يرضى ذلك
من صاحبه ، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى موته ، وإلا فلا ينبغي أن يُساعده على
معصيته ، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكن إليه لغرض دنيوي أو لطمعٍ أو
لِعَوَاضٍ .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٧]. والمعنى : وأما المؤمنون المتقون فقد زدهم الله هدى ، وألهمهم رشدهم . يقول الإمام الفخر : " لما بيّن الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه ، فإنه يستمع ويفهم ، ويعمل بما يعلم ، والمنافق يستعيد ، والمهتدي يفهم ويعيد ، وفيه فائدتان إحداهما : ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين وثانيهما : قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة ، فإنه لو قال ما فهمته لغموضه وكونه معمى ، يرد عليه ويقول ليس كذلك ، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه ، فذلك لعناء القلوب ، لا لخباء المطلوب .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [سورة الفتح: ٢٦]. والمعنى : حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل ، فرفضوا أن يكتبوا فى كتاب الصلح " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " ، ورفضوا أن يكتبوا " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ " . وقولهم : أو أنك رسول الله لا تبعناك . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . " حمية الجاهلية " يعنى : " أنفة وغطرسة وعصبية جاهلية ، فجعل الله الطمأنينة ، والوقار فى قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " فى ظلاله : " وهذه الحمية لا لعقيدة ولا منهج . إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التي جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدى الذي ساقوه ، أن يبلغ محله الذي ينحرف فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة . كي لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة .

ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام! وهي الحمية التي بدت في تجبيهم لكل من أشار عليهم - أول الأمر - بخطة مسالة ، وعاب عليهم صدّ محمد ومن معه عن بيت الله الحرام . وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم ، ولصفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أثناء الكتابة . وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق . وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي ، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة .

" وألزمهم كلمة التقوى " . إلزم تكريم وتشريف . وهي كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " . وهذا قول الجمهور من العلماء . والظاهر أن المراد بكلمة " التقوى " هي إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله ، وعدم شق عصا الطاعة عندما كتبت بنو الصلح ، وكانت محففة بحقوق المسلمين في الظاهر فثبت الله المؤمنين على طاعة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - . وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين ، وكانوا أحق بهذه الفضيلة من كفار مكة . لأن الله أختارهم لدينه ، وصحبه نبيه - عليه الصلاة والسلام - . وكان الله عالماً بمن هو أهل للفضل ، فيحقه بمزيد من الخير والتكريم .

وفى التقوى يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ١٠] . والمعنى : إن المؤمنين منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية ، وفى الحديث : " قَالَ - صلى الله عليه وسلم - « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن أخو المؤمن لا يخذله ولا يظلمه لا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا ، كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، لا يخطب امرئ على خطبة أخيه ، ولا يبيع على بيع أخيه ، وإن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، التقوى ها هنا ، وأشار إلى صدره ، « رآه مسلم فى الصحيح . وفى الصحيح أيضا : " إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب : قال الملك : آمين ، ولك بمثله " . ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولابد ، تثبت عن ذلك قوله : " إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " . فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب . " وَاتَّقُوا اللَّهَ " . فى كل ما تأتون وما تدرين ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين . حيث إن الأخوة فى الدين مثل الأخوة فى النسب ، وكأن الإسلام أب لهم جميعاً . قال الشاعر :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم

" لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " . يعنى : رجاء أن يرحمكم ربكم ، ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أظلمتموه ، واتبعتم أمره ، واجتنبتم نواهيه . وفى هذا المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ [سورة الحجرات: ١٢] . وقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [سورة الحجرات: ١٣] .

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن الأخلاق مبينا أن التقوى من الأخلاق القرآنية فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنِ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ ءِإِنَّهُمْ لَكَاؤُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْمَارِهِمْ سَتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي ءَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّالِبِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

[سورة الذاريات: ١٥: ١٩]. والمعنى : إن الذين اتقوا الله وأطاعوه ، واجتنبوا معاصيه ، فى بساتين وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، قريرة أعينهم بما آتاهم ربهم ، إذ فيه ما يرضيهم ويغنيهم ويفوق ما كانوا يؤملون . ثم ذكر الثمن الذى دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم ، فقال - سبحانه وتعالى - : " **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ** " . يعنى : إنهم كانوا فى دار الدنيا يفعلون صالح الأعمال خشية من ربهم ، وطلباً لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التى فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون . ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾ [سورة الحاقة: ٢٤]. ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال : " **كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** **﴿١٧﴾** **وَبِالْأَسْعَارِ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ** **﴿١٨﴾** **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** **﴿١٩﴾** " . يعنى : كانوا ينامون القليل من الليل ، ويتهدجون فى معظمه .

يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - : " ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحو! إلا يصلون فيها شيئاً ، أما من أولها أو من وسطها ، ويقول " الحسن البصري " : " كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نشطوا فجدوا إلى السحر . وعن أنس - رضى الله عنه - قال : " كانوا يصلون بين المغرب والعشاء ، فهم يحبون الليل متهددين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم " . ثم بين القرآن بوصفهم بأداء الزكاة ، والبر بالفقراء فيقول : وجعلوا فى أموالهم جزءاً معيناً ميزه ، وعزّو؛ للطالب المحتاج ، والمتعفف الذى لا يجد ما يغنيه ، ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم . هذه هى التقوى وهى لون من ألوان الأخلاق فى القرآن الكريم ، والتى لو اهتدى بها المسلمون لفازوا بسعادة الدارين . الدنيا والآخرة فى الدنيا السيرة العطرة والسلوك الحميد ، وفى الآخرة بجنات عرضها السماوات والأرض أعدت لهم ولأمثالهم من المتقين . ومثلها قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْمٍ**

﴿١٧﴾ فَكَيْهِنَ بِمَاءِ أَنهْمُ رَبِّهْمُ وَوَقَهْمُ رَبِّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُورٍ مَّصْفُوفَةً وَزُوجَنَّهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿[سورة الطور: ١٧: ٢٠].﴾

وما نزل القرآن الكريم يتحدث عن الأخلاق مبيناً أن تقوى الله من جملة الأخلاق القرآنية فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة القمر: ٥٤: ٥٥]. والمعنى: إن الذين اتقوا عقاب ربهم فأطاعوا، وأدوا فرائضه، واجتنبوا معاصيه، وأخلصوا له العمل في السر والعلن، ينبئهم بما عملوا جنات تجري من تحتها الأنهار، يطلون فيها من أساور من ذهب، ويجلسون على فرش، بطانتها من إستبرق، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر كفاء ما بدلوا من الصبر على شاق الطاعات، وحرموا منه أنفسهم من اللذات كما قيل للربيع بن خيثم. وقد صلى حتى ورمت قدماه، وتهجد حتى غاصت عيناه، "أتعبت نفسك" فقال: الربيع بن خيثم: راحتها أطلب.

كما أنهم ينالون الزففى عند ربهم، القادر على جزأهم بإحسانه وجوده، وفضله ومنته، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه، لا يمانع ولا يغالب وهو العزيز الحكيم. اللهم احشرننا فى زمرةهم، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، واجعل اللهم القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا أنك أنت السميع القريب المجيب. ومثلها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَاءَمُوا بِرَسُولِهِ ءءُؤْتِكُمْ كَفَلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ ءءَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ءءَغْفِرْ لَكُمْ ءءَللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٨]. ومثلها قول الحق - سبحانه وتعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَآ تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجُّوْا بِالْآثِمِ ءءَالْعُدُونِ وَمَعَصِيَتِ الرَّسُولِ ءءَتَنَجُّوْا بِالْبِرِّ ءءَالْتَقَوْا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهٖ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة المجادلة: ٩]. ومثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءءَلْتَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ءءَاتَّقُوا اللَّهَ ءءَإِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحشر: ١٨]. ويقول الحق -

سبحانه وتعالى - أيضا : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الممتحنة: ١١]. والمعنى : وإن فرت زوجة أحد من المسلمين ولحقت بالكفار فغزيتم وغنمتم وأصبتم من الكفار غنيمةً فأعطوا لمن فرت زوجته مثل ما أنفقه عليها من المهر، من الغنيمة التى بأيديكم ، يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - : " يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار أمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة وهكذا قال مجاهد { فَعَاقِبْتُمْ } أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم { فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا } يعنى مهر مثلها وهكذا قال مسروق وإبراهيم وقتادة ومقاتل والضحاك وسفيان بن حسين والزهري أيضا وهذا لا ينافي الأول لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلا فمن الغنائم التى تؤخذ من أيدي الكفار .

يقول القرطبي : " لما نزلت الآية السابقة وهى : ﴿ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْنَا مَّا أَنْفَقُوا ﴾ [سورة الممتحنة: ١٠] ، قال المسلمون : رضينا بما حكم الله ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [١١] . ونقل القرطبي عن قتادة أن هذا الحكم قد نسخ بسورة براء . وراقبوا الله فى أقوالكم وأفعالكم ، واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامر ، وهو الله الذى آمنتم وصدقتم بوجوده ، فإن من مستلزمات الإيمان " تقوى الرحمن " .

ومثلها قول الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالَكُمُ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [١٥] فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة التغابن: ١٦]. وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ تَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالُ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارِزُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْكُمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُبَيِّنُكُمْ لِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَّ فَسَازِعْهُنَّ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذِبْنَهَا عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَابُهُ أَمْرًا خَسِرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴿سورة الطلاق: ١: ١١﴾.

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْأَ أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦﴾ [سورة التحريم: ٦]. والمعنى : يا من صدقتم بالله رسوله وأسلمتم وجوهكم لله ، أحفظوا أنفسكم ، وصونوا أزواجكم وأولادكم ، من نار حامية مستعرة وذلك بترك المعاصي ، وفعل الطاعات ، وبتأديبهم ، وتعليمهم .

يقول مجاهد - رضى الله عنه - : " أي اتقوا الله ، وأوصوا أهليكم بتقوى الله " .
ويقول الخازن فى تفسيره : " أي مرهم بالخير ، وانهوهم عن الشر ، وعلموهم
وأدبوهم حتى تقوهم بذلك من النار ، والمراد بالأهل : النساء ، والأولاد وما ألق
بهما " . ونحن نرى أن المقصود من قوله : " وما يلحق بهما ، أولاد الأولاد وما إلى
ذلك من الأحفاد .

ووقتوهم جهنم ، وحطبها الذى تسعر به هو" الخلائق والحجارة . يقول
المفسرون : " أراد بالحجارة حجارة الكبريت ، لأنها أشد الأشياء حراً ، وأسرع
أتقاداً ، وعنى بذلك أنها مُفرطة الحرارة ، وليست كنار الدنيا . يقول ابن مسعود -
رضى الله عنهما - : " حطبها الذى يلقي فيها " بنو آدم ، وحجارة من كبريت "
أنتن من الجيفة " . وعلى هذه النار زبانية غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ،
لأنهم خلقوا من الغضب ، وحبب إليهم عذاب الخلق ، كما حبب لبنى آدم أكل
الطعام والشراب وهم لا يعصون أمر الله بحال من الأحوال ، وينفذون الأوامر بدون
إمهال ولا تأخير .

ومثلها قول الحق : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ [سورة
القلم: ٣٤] . ومثلها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ
وَأَطِيعُونَ ﴾ [سورة نوح: ٣] . والمعنى : أمركم بعبادة الله وحده ، والأمر بذلك
يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب ، وأفعال الجوارح ، وأننى
أمركم بتقواه ، وخوف عذابه ، بأن تتركوا محارمه ، وتجنبوا مآثمه ، وانتهوا إلى ما
أمركم به وأقبلوا نصيحتى لكم .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴾ [سورة
مما يشتهون ٤٢] ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المرسلات: ٤١: ٤٣] .
والمعنى : إن المتقين فى ظلال ظليلة ، وكن كنين ، وعيون وأنهار وفى ظلال

الأشجار، وظلال القصور، فلا يصيبهم أذى حر ولا قرح بخلاف الكافرين فإنهم فى ظل ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغنى عن اللهب.

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝۳۱ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝۳۲ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ۝۳۳ ﴾ [سورة النبأ: ٣١: ٣٣]. والمعنى : إن الذين اتقوا محارم الله، وخافوا عقابه سيفوزون بالكرامة والثواب العظيم فى جنات النعيم، ثم نرى القرآن يفسر هذا القول بقوله : ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝۳۲ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ۝۳۳ وَكَأَسَادِهَاقًا ۝۳۴ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ۝۳۵ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [سورة النبأ: ٣٦].

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَن آعطَىٰ وَانْفَقَىٰ ۝۵ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَىٰ ۝۶ فَسَيُسِّرُهُ لِيُسْرَىٰ ۝۷ وَأَمَّا مَن يَخِلُّ وَاسْتَغْفَىٰ ۝۸ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ ۝۹ فَسَيُسِّرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ ۝۱۰ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝۱۱ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝۱۲ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝۱۳ فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلَطَّىٰ ۝۱۴ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ ۝۱۵ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝۱۶ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ ۝۱۷ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝۱۸ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝۱۹ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝۲۰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾

[سورة الليل: ٥: ٢١]. والمعنى : فأما من أعطى المال، وأنفقه فى وجوه الخير، وصدق بثبوت الفضيلة، والعمل الطيب مما هو مذكور فى طبيعة الإنسان فسنهيئه لليسرى، وأما من أمسك ماله الذى يبخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة، وفيما يعود نفعه على الجماعة المسلمة ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ رَعِمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٩٤].

وقد خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ثم بعثنا له الكلمة من أفرادهم والأنبياء وشرعنا لهم الأحكام وبيّنا لهم العقائد تعليماً وإرشاداً، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين : سبيل الخير والصلاح،

والسبيل المعوج فيتردى فى الهاوية ، وإنا لنحن المالكون لكل ما فى الدنيا ، وكل ما فى الآخرة ، فنهب ما نشاء لمن نريد ، وإذا كان ملك الحياتين لله كان هديه هو الذى يجب إتباعه فيها لأن المالك لأمر عالم بوجوده التصرف فيه ، ولرحمتنا بكم وعلما الكامل بمصلحتكم أسدينا لكم الهدى فأندرناكم ناراً تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به عن ربه من الآيات ، وأعرض عن إتباع شرائعه وانصرف عن وجه الحق ، ولم يعد إليها ثانياً نادماً . وسيبعد عنها المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصي الشديد التحرز فيها بحيث لا يخطرهما له ببال . (١)

1 - تفسير المراغى ج ٥ وما بعدها ، ج ٩ ، ص ١٣٠ . وذاته ص ١٧٧ ، وذاته ١٠٢ . ج ١٠ ، ص ٧٩ .

الاستقامة

ومن الأخلاق القرآنية " الاستقامة " . يقول الحق - سبحانه وتعالى - :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

الضَّالِّينَ ② ﴾ [سورة الفاتحة: ٦: ٧]. والمعنى : وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته . فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ، ورعايته ، ورحمته . والتوجه إلى الله فى هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده هو المعين . وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه . فالهداية إلى الطريق المستقيم هى ضمان السعادة فى الدنيا والآخرة عن يقين . وهى فى حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذى ينسق بين حركة الإنسان ، وحركة الوجود كله فى الاتجاه إلى الله رب العالمين ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم .

" صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ " . فهو طريق الذين قسم لهم نعمته ، لا طريق الذين غضب الله عليهم لمعرفة الحق ، ثم حيدتهم عنه . أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه ... إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين . وبعد فهذه السورة المختارة للتكرار فى كل صلاة ، والتى لا تصح بدونها صلاة وفيها على قصرها تلك الكلمات الأساسية فى التصور الإسلامى ، وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور .

وقد ورد فى صحيح مسلم من حديث عَنِ الْعَلَاءِ عَنِ أَبِيهِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم- قَالَ « مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ - ثلاثاً - غَيْرُ تَمَامٍ » . فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ . فَقَالَ أَقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمْدِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَتَى عَلَى عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ). قَالَ مَجْدِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ). قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَعَبْدِي مَا سَأَلَ. « قَالَ سُفْيَانُ حَدَّثَنِي بِهِ الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْقُوبَ دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَرِيضٌ فِي بَيْتِهِ فَسَأَلْتُهُ أَنَا عَنْهُ. وَلَعَلَّ هَذَا الْحَدِيثَ الصَّحِيحَ . بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ مِنْ سِيَاقِ السُّورَةِ مَا تَبَيَّنَ - يَكْشِفُ عَنْ سِرِّهِ مِنْ أَسْرَارِ اخْتِيَارِ السُّورَةِ لِإِرْدَادِهَا الْمُؤْمِنَ "سَبْعَ عَشْرَ مَرَّةً" فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرُدَّهَا كَلِمَا يَدْعُوهُ فِي الصَّلَاةِ .

ويقول صاحب اللطائف : " أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ② صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ " . أَي أَرِنَا عَنَا ظَلَمَاتِ أَحْوَالِنَا لِنَسْتَضِيءَ بِأَنْوَارِ قُدْسِكَ عَنِ التَّفْيُوتِ بِظِلَالِ طَلَبِنَا ، وَارْفَعْ عَنَا ظِلَّ جَهْدِنَا لِنَسْتَبْصِرَ بِنُجُومِ جُودِكَ ، فَجَدِّدْ بِنُورِكَ حَتَّى لَا يَصْحَبِنَا قَرِينٌ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ وَيَسَاوِسَهُ ، وَرَفِيقٌ مِنْ خَطَرَاتِ النُّفُوسِ وَهَوَا جَسَدِنَا ، أَوْ يَصُدَّنَا عَنِ الْوَصُولِ تَعْرِيجَ فِي أَوْطَانِ التَّقْلِيدِ ، أَوْ يَحُولَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْإِسْتَبْصَارِ وَكُونُوا مَعْتَادَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ ، وَتَسْتَهْوِينَا آفَةٌ مِنْ نَشْوَى وَهْوَادَةٍ ، وَظُلْمٍ أَوْ عَادَةٍ ، وَكُلِّ أَوْ ضَعْفِ إِرَادَةٍ ، وَطَمَعِ مَالٍ أَوْ اسْتِرْدَادَةٍ . وَالصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ دَلِيلٌ ، وَلَيْسَ لِلْبِدْعَةِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ وَلَا إِلَيْهِ سَبِيلٌ . الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مَا شَهِدَتْ بِصِحَّتِهِ دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ ، وَنَبِهَتْ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ التَّحْقِيقِ ، الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مَا دَرَجَ عَلَيْهِ سَلْفُ الْأُمَّةِ ، وَنَطَقَتْ بِصَوَابِهِ دَلَائِلُ الْعِبْرَةِ . الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مَا بَايَنَ الْحُظُوظِ سَالِكُهُ ، وَفَارَقَ الْحَقُوقَ قَاصِدُهُ . الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ مَا يُفْضِي بِسَالِكِهِ إِلَى سَاحَةِ التَّوْحِيدِ ، وَيُشْهِدُ صَاحِبَهُ أَثَرَ الْعِنَايَةِ وَالْجُودِ ، لِئَلَّا يَظُنَّهُ مُوجِبٌ بِبَدَلِ الْمَجْهُودِ . وَمَعْنَى " مُوجِبٌ " . يَعْنِي مُسْتَحَقٌّ وَهَذَا يَتَضَحُّ مَوْقِفَ الْإِمَامِ الْقَشِيرِيِّ مِنْ قَضِيَّةِ مَهْمَةٍ وَهِيَ " هَلْ يَجِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَنْشِيبَ الْمَطِيحَ ؟ وَلَا يَرَى الْقَشِيرِيُّ هَذَا الْوَجُوبَ . يَعْنِي : لَا يَرَى الْقَشِيرِيُّ أَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبِ

على الله أن يثيب المطيع ، لأنه يربط كل عمل للعبد بالعناية الإلهية ، ولا بالمجهود الانسانى .

يعني طريق من أنعمت عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وهم الأولياء والأصفياء . ويقال طريق من أفنيتهم عنهم ، وأقمتهم بك لك ، حتى لم يقفوا في الطريق ، ولم تصدهم عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعرّيج على استجلاب حظوظهم . ويقال صراط من طهرتهم عن آثامهم حتى وصلوا إليك بك . ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرّروا من مكائد الشيطان ، ومغاليط النفوس ومخابيل الظنون ، وحسابات الوصول قبل خمود آثار البشرية . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك ، والتبري من الحول والقوة ، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار ، والعلم بتوحيدك فيما تمضيه من المسار والمضار . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة ، واستشعار نعت الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات بواده الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يُخلوا بشيء من أحكام الشريعة . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم تطفئ شمس معرفهم أنوار ورعهم ولم يُضيّعوا شيئاً من أحكام الشرع . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

وقد صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال : " لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ " . قَالُوا : « وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ » . وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ عَلَى رَأْسِهِ « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ » . والمعنى : ليس هناك أحد ينجيه عمله الذى يعمله من صوم ، وصلاة ، وزكاة ، وحج واعتماد ، وما إلى ذلك من الأعمال حتى

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع كبير فضله ، وعظيم عمله ، لا يدخل الجنة بعمله ولكن يدخلها بتغمد الله له بفضله ورحمته .

ويؤكد القرآن الكريم هذه المعاني الساميات في قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس: ٨٨]

سبيل الذين لا يعلمون ﴿ [سورة يونس: ٨٨: ٨٩]. والمعنى : قال لهما - سبحانه وتعالى - قد قبلت دعوتكما على فرعون وقومه ، فامضيا لأمري ، واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق ، ومن إعداد شعبكما للكفاح والجَلاد والخروج من مصر . ولا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون سنني في خلقي ، الذين يستعجلون الأمر قبل ميقاته ، ويستبطنون وقوعه في حينه .

وفى سفر الخروج من " التوراة " ما يدل على استجابة دعوة موسى

- عليه السلام - حين تنزل النوازل على مصر وأهلها فيلجأ " فرعون " إلى موسى - عليه السلام - حين كل نازة منها ليدعوربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به ، حتى إذا كشفها قسنى الرب قلب " فرعون " فأصر على كُفْرِهِ . وما قاله المفسرون في تفسير " الطمس على الأموال " فهو ترهات الأباطيل الاسرائيلية التي روجها " كعب الأحرار " وأمثاله ممن كان مقصدهم صد اليهود عن الإسلام مما يريه في تفسيره؛ مخالفاً لما هومتفق عليه عندهم ، وعند غيرهم من المؤرخين فى وقائع عملية ، وأمور حسية .

ويقول المولى - عزوجل - فى نفس المعنى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة مريم: ٣٦]. والمعنى : ومما أمر به " عيسى " - عليه السلام - قومه وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله : " إن الله ربي وربكم " وأمرهم بعبادته . وهذا الذى أوصيتكم به أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم ،

فمن سلكه نجا ، ومن أتبعه اهتدى ، لأنه هو الدين الذى أمر به أنبياءه ، من خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدًوًا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًوًا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحج: ٢٣: ٢٤]. والمعنى : إنهم أُرشدوا إلى الكلام الطيب ، والقول النافع ، إذ ليس فى الجنة لغو أو كذب ، وهدوا إلى صراط الله ، وهو الجنة دار المتقين . ويقول الله تعالى فى ذلك المعنى : ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٤]. والمعنى : وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ، فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من فى قلبه مرض . وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ومنقذهم من الضلالة والغواية .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّبُنَّ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٧٣: ٧٤]. والمعنى : "وإنك يا محمد - صلى الله عليك وسلم - لتدعوهم إلى الطريق المستقيم ، وهو الإسلام الموصل إلى جنات النعيم . ويقول - عز من قائل - : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النور: ٤٦] . والمعنى : لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات واضحات وآيات على طريق الحق وهو الإسلام .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَيَوْمَ يَعْزُضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الفرقان: ٢٧]. والمعنى : : وانكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرط فى جنب الله وعض اليدين كناية عن

الندم والحسرة . والمراد بالظالم هنا : " عقبة بن معيط " وهى نعم كل ظالم فى كل عصر وزمان ومكان . يقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذى لا مزية فيه، وسلك طريقاً أخرج غير سبيل الله ورسوله ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وَعَضَّ عَلَى يَدَيْهِ حَسْرَةً وَأَسْفَا . وسواء كان سبب نزولها في " عقبة بن أبي مُعَيْط " أو غيره؛ من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ (١١) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا مِنْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِيمِ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿١٨﴾ [سورة الأحزاب: ٦٦: ٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، وَيَعَضُّ عَلَى يَدَيْهِ قَائِلًا: ﴿ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٢٧) يُؤْتِلَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٨﴾ [سورة الفرقان: ٢٧: ٢٨] يعنى : من صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة ، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف ، أو غيرهما. { لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ } وهو القرآن { بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي } أي: بعد بلوغه إلي أن قال الله تعالى : { وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا } أي : يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

ثم يقول الظالم : يا ليتنى أتبعته الله ورسوله فاتخذت معه الطريق إلى الهدى ينجيني من العذاب ، ويا هلاكي وحسرتى ، يا ليتنى لم أصاحب فلاناً وأجعله صديقاً لي . ولفظ فلان كناية عن الشخص الذى أضله وهو "أبي بن خلف" . ويقول " القرطبي " : وكنى عنه ، ولم يصرح باسمه ليتبادل جميع من فعل مثله . حيث انه أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت .

ويقول تعالى أيضا : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (٥٧) [سورة الفرقان: ٥٧] . والمعنى : قل لهم يا محمد -

صلى الله عليك وسلم - لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ، ولكنه من يشاء أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان بالله وطاعته ، وأجرى على الله ، وفي نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٠]. ويقول أيضاً : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ [٤٢] ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ ﴾ [٤٣] [سورة الروم: ٤٢: ٤٣]. والمعنى : أخلص دينك لله ، وأقبل على الإسلام وبهمة ونشاط مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق وهو الإسلام وهذا الدين الحق الذي أمرناك بالاستقامة عليه هو خلقه الله التي خلق الناس عليها وهو فطرة التوحيد كما في الحديث : (١) . يقول ابن الجوزي : " لفظه لفظ النفي ، ومعناه النهي ، والمعنى على ذلك لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبراً بمعنى الطلب . ذلك هو الدين المستقيم ، ولكن الناس جهلة لا يتفكرون ، ولو أنهم تفكروا لعلموا ، وعرفوا ، وتأكدوا أن لهم خالقاً ومعبوداً هو الله - عز وجل - وتوجه بكليتك إلى الدين المستقيم ، وهو دين الإسلام واستقم عليه في حياتك .

يقول " القرطبي " قال تعالى : " فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ " : أي أقم قصدك ، واجعل جهتك إتباع الدين القيم ، يعني الإسلام . من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله . أي لا يرده الله عنهم ، فإذا لم يرده لم يتهياً لأحد دفعه . والمراد يوم القيامة . ويومئذ يتفرقون ، فريق في الجنة وفريق في السعير .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سورة سبأ: ٦].

والمعنى : ويرشد الله – عز وجل – ويهدى من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذى لا يقهر، المحمود فى ذاته وصفاته، وأفعاله . ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝۳ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝۴ ﴾ [سورة يس: ٣: ٤]. ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝۱۰ ﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ ﴾ [سورة يس: ٦٠: ٦١]. والمعنى : إنك على طريق ونهج مستقيم ، لا إنحراف فيه ولا اعوجاج ، هو الإسلام دين الرسل قبلك ، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد . يقول " القرطبي " : " أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام ، كما قال " قتادة " – رضى الله عنه – : " والتنكير للتفخيم والتعظيم . وأمرتك بأن تعبدوني وحدي ، وذلك بتوحيدي ، وطاعتي ، وأمثال أمري هذا هو الدين الصحيح ، والطريق الحق المستقيم .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى-: ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝۱۱۸ ﴾ [سورة الصافات: ١١٨]. والمعنى : وهديناهما الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه . يقول الطبري : " وهو الإسلام دين الله الذى اتبعت به الأنبياء . ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصَّمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝ ﴾ [سورة ص: ٢٢]. والمعنى : حين دخلوا على " داود " – عليه السلام – من أعلى السور فخاف وارتعد منهم ، قال المفسرون : " وإنما فزع " داود " – عليه السلام – منهم أنهم دخلوا عليه بغير إذن ، ودخلوا أيضا من غير الباب المعهود الدخول منه ، وكان ذلك فى وقت خصه " داود " – عليه السلام – للعبادة ، فقالوا له : لا تخف فنحن قومان مختصمان تعدى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالعدل ولا تظلم فى الحكم ، وأرشدنا إلى الطريق السوي المستقيم الواضح .

وفى القرآن الكريم كثرة كثيرة من الآيات التى تأمر المسلم بهذا الخلق وهو "الاستقامة". فيقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة فصلت: ٦]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة فصلت: ٣٠: ٣١]. وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَرَ قَوْلًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الشورى: ١٣: ١٤]. وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمَاكِسْبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءِ آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشورى: ٣٥]. وقوله أيضا ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِءَ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الشورى: ٥٣]. وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة الزخرف: ٦٤].

وقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٣) أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

[سورة الأحقاف: ١٣: ١٤]. وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَبْوُهُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٧]. وقوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [سورة الفتح: ٢]. ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (٢٠) [سورة الفتح: ٢٠]. وقال تعالى : ﴿ أَمِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ (٢١) أَمِنْ يَمْشِي مُكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمِنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢٢) [سورة الملوك: ٢١: ٢٢].

والمعنى : هل من يمشى مُكْبَسًا رأسه لا يرى طريقه ، فهو يخطب خطب عشوائي ، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيخر على وجهه ، هل هذا أهدى أم من يمشى منتصب القامة يرى طريقه ولا يتعثر في خطواته ، لأنه يسير على طريق بَيِّن واضح؟ . يقول المفسرون : " وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة ، لا يهتدي إلى الطريق فيتعثر ولا يزل ينكب على وجهه ، والمؤمن كالرجل السوي الصحيح البصير ، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمن من الخطب والعتار ، هذا مثلها في الدنيا ، وكذلك يكون حالهما في الآخرة فإن المؤمن إذا يحشر يمشى سويًّا على الصراط المستقيم ، والكافر يحشر على وجهه إلى دركات الجحيم .

يقول قتادة -رضي الله عنه- : "إن الكافر أكبر على معاصي الله في الدنيا، وحشره الله يوم القيامة على وجهه ، فقيل: يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ . قال: " إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يحشره يوم القيامة على وجهه . والكافر يعمل بمعصية الله ، فيحشره الله يوم القيامة على وجهه. والمؤمن كان على

الدين الواضح فحشره الله على الطريق السوي يوم القيامة ، ويقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : "هو مثل لمن سلك طريق الضلال ، ولمن سلك طريق الهدى .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَلْوِ اسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ [سورة الجن: ١٦] . والمعنى : وأوحى إليه أنه لو استقام الإنس

والجن على ملة واحدة وهى الإسلام ، لوسعنا عليهم أرزاقهم ، ولبسطنا لهم فى الدنيا ، وإنما خص الماء الغدق بالذكر لأنه أصل المعاش ، وكثرته أصل السعة ومن ثم قيل : " حيثما كان الماء كان المال " . وحيثما كان المال كانت الفتنة ، ولندرة وجوده بين العرب ومن ثم امتن الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بقوله تعالى :

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [سورة الكوثر: ١] . وذلك على تفسير الكوثر

بالنهر الجاري ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٦﴾

[سورة الأعراف: ٩٦] . والسرفى ذلك أن الخصب والسعة لا يوجدان إلا حيث توجد الطمأنينة والعدل ، ويزول الظلم وتكون الناس سواسية فى نيل الحقوق . فلا ظلم ، ولا إرهاب ، ولا محاباة ، ولا رشوة فى الأحكام . ويقول صاحب اللطائف : " والاستقامة على الطريق تقتضى كمال النعمة ، وإكثار الراحة ، والإعراض عن الله يوجب تنغص العيش ، ودوام العقوبة .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾

[سورة التكويد: ٢٨] . والمعنى : إنه نذكر يتذكر به من وجه إرادته للاستقامة على حادة الحق والصواب ، وأما من انحرف عن ذلك فلا يؤثر فيه هذا الذكر ولا يخرج من غفلته . فعلى نسيئة المكلف تتوقف الهداية ، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ويطلبه ، ويجد فى كسب الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا . بم دفعتموه ، أن إرادة الإنسان مستقلة فى فعل ما يريد ، وله الاختيار التام فيما يفعل وهو منقطع العلاقة فى إرادته من سلطان ربه فقال تعالى : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَلَمِينَ ﴿٢٩﴾ [سورة التكويد: ٢٩]. ويقول صاحب اللطائف : " ما هذا القرآن إلا ذكرى لمن شاء منكم أن يستقيم .

ويقول تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [سورة العلق: ١١]. والمعنى : "أخبرني عن حال ذلك الطاغية ، لوتخلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر وتقوى الله ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر به ، والنهى عن طاعته ، فإن ذلك يفوت عليه أعلى المراتب ويجعله فى أخط الدركات وأدناها ، أما كان الأفضل له أن يهتدى ويهدى غيره؛ إلى خصال البر والخير، وقد كانت هذه حال النبي - صلى الله عليه وسلم - فعمله كان إما فى إصلاح غيره، يأمره بالتقوى ودعائه إليها ، وفى اللطائف: لو كان على الهدى لكان خيراً له . (١)

إكرام الضيف وإطعام الطعام

من أخلاق الإسلام " إكرام الضيف ، وإطعام الطعام " . وفي الحديث :
 " روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : « أن الحسن والحسين عليهما السلام
 مرضا فعادهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في إناس معه ، فقالوا : يا أبا
 الحسن لو نذرت على ولدك ، فنذر عليّ وفاطمة وفضة جارية لهما ، إن شفاهما الله
 تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا ، وما معهم شيء فاستقرض علي من شمعون
 الخيبري اليهودي ثلاثة أصواع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً ، واخبزت خمسة
 أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل .

فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين
 أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة .

فآثره؛ وياتوا ولم يدوتوا إلا الماء وأصبحوا صائمين ، فلما أمسوا ووضعوا
 الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثره؛ وجاءهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل
 ذلك فلما أصبحوا أخذ عليّ - عليه السلام - بيد الحسن والحسين ودخلوا على
 الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة
 الجوع . قال : " ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم " . وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة
 في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك ، فنزل جبريل -
 عليه السلام - ، وقال : خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأها السورة . .

فنزّل قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ يُوَفُّونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
 مُسْتَطِيرًا ۝ ٧ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ ٨ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ
 لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝ ٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ۝ ١٠ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
 الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ۝ ١١ وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا وَجَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ ١٢ مُتَّكِلِينَ فِيهَا عَلَى
 الْأَرْبَابِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝ ١٣ ﴾ [سورة الإنسان: ٧: ١٣].

ويقول - صلى الله عليه وسلم - : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ « .
 قَالَ : وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : « يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْلِيَصُنْتَ » (١) . ويقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْسِنُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر: ٩].

ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " ما يؤمن من بات شبعان وجاره طاول إلى جنبه " أي جوعان . والكرم عادة لدى العرب فى جاهليتهم وإسلامهم فيرى أن " حاتم الطائي " كان يستقبل ضيفاته بصدر رحب ، ويهش فى وجوههم ، ويحسن استقبالهم ، ويكرمهم كل الإكرام فيقول :

أضاحك ضيقي قبل إنزال رحله
 ويخصب عني ، والمحل جديب
 وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
 ولكنما وجه الكريم خصيب

فإن من سماحته لم يطمس كل ما كان فى الجاهلية ، فما اتفق مع أخلاق الإسلام أيده ووافق عليه مثل الكرم ، والمرءة ، والشامة إغاثة الملهوف ، ومساعدة المحتاج ، إعانة المظلوم وهكذا . وما يختلف مع الإسلام وأخلاقه مثل " الزنا ، الربا ، شرب الخمر ، لعب الميسر " أنكره وحاربه ، ونهى عنه .

ومن الأخلاق القرآنية يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿١٦﴾ فَمَرَأَ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

قَالَتْ يَوَيْلَتَىٰ ءَأَأِدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا الشَّيْءُ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾
 قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ
 ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ
 إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَأْتِي إِبْرَاهِيمُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ
 ءَأَاتِيهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُودٌ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَةً مِنْهُمُ الضَّالُّونَ بِمَنْ دَرَجَاتٍ
 وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
 قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْغِي أَلَيْسَ
 مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَلْعَالَمِ مَا نُزِيدُ ﴿٧٩﴾
 قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿سورة هود: ٦٩: ٨٠﴾ . والمعنى :
 هذه القصة الرابعة فى سورة " هود " - عليه السلام - ، وهى قصة لوط وهلاك
 قومه المكذبين ، أئى : جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك " قوم لوط " . جاءت
 سيدنا إبراهيم بالبشارة بإسحاق ، وهى البشارة بالولد ، وقيل : " بهلاك قوم لوط " ،
 والظاهر أن البشارة كانت بالولد .

يقول " القرطبي " : " لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مرأى بإبراهيم -
 عليه السلام - فظنهم أضيافاً ، وهم " جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل " قاله ابن
 عباس - رضي الله عنهما - . ويقول " السدى " : " كانوا أحد عشر ملكاً على صورة
 الغلمان الحسان الوجوه ، فسلموا عليه سلاماً ، وقال لهم " إبراهيم " : سلام عليكم .
 يقول المفسرون : " رد عليهم التحية بأحسن من تحيتهم ، لأنه جاء بها جملةً
 اسمية ، والجملة الإسمية هنا تدل على الثبات والاستمرار فما أبطأ " إبراهيم "
 - عليه السلام - ولا تأخر مجيئه اليهم حتى جاءهم بعجل مشوي فقدمه لهم . يقول
 " الزمخشري " فى " كشافه " : " والعجل هو ولد البقرة . ويسمى " الحسيل " . وكان
 مال " إبراهيم " - عليه السلام - " البقرة " . والحنيذ هو اللحم المشوي بالحجارة
 المحماه فى أخدود " . وقيل : هو الذى يقطر دسمه . ويدل عليه قوله - تعالى - " "

بعجل سمين - . وجاءه قومه يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف ، كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعا ، ومن قبل ذلك الحين كانت عاداتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة ، فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين .

يقول " القرطبي " : " وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجالس قومها فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فتية ما رأيي مثلهم جمالاً وكذا وكذا فحينئذ جاؤا يهرعون إليه ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط ، وجدوا لوطا في حرب له وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سدوم فسألوها الدلالة على من يضيفهم ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط وقالت لهم : مكانكم ! ونهبت إلى أبيها فأخبرته فخرج إليهم .

فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة .

فقال لهم : أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ .

فقالوا : وما عملهم ؟ .

فقال : أشهد بالله إنهم لشرقوم في الأرض - وقد كان الله - عز وجل - قال ملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات - فلما قال لوط هذه المقالة قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ثم دخل بهم المدينة .

فقال لهم سيدنا " لوط " - عليه السلام - : " هؤلاء نساء البلدة أزجكم بهن ، فذلك أظهر لكم وأفضل ، وإنما قال : " بَنَاتِي " ، لأن كل نبي أب ، لأمته فى الشفقة والتربية . فاتقوا الله وأخشوا عذابه ، ولا تفضحوني ، وتهينوني فى ضيوفي ، أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار . ويقول " المراعى " فى تفسيره : " اختلفت الرأية فى الملائكة : فعن " عطاء " إنهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل - عليهم السلام - . وقيل إنهم جبريل وسبعة ملائكة معه " .

ومثل هذا الأمر لا يعلم إلا بتوقيف من الوحي ، ولم يثبت . أما بشاراة الولد ، فلقلوه - سبحانه وتعالى - : " فَبَشِّرْهَا بِإِسْحَاقَ " . " وَبَشِّرْهُ بِعَلِيمٍ عَلِيمٍ " ، وجاء فى سورة الذاريات : ﴿ فَرَقَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُوتُ ﴾ (٢٧) [سورة الذاريات: ٢٧] . وفى هذا دليل على أنه كان مشنوياً معداً لمن يجئ من الضيوف ، وربما كان قد شوي عند وصولهم بلا تريث ولا إبطاء .

وحين عرض عليهم الزواج من البنات لأنهن أظهر لهم . يقول ابن عباس - رضى الله عنهما - " ويدخل فيهن نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدات للزواج ، ومراده أن الاستمتاع بهن بالزواج أظهر من التلوث برجس اللواط ، فإنه يكبح جماح الشهوة مع الأمن من الفساد . " فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٍّ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ " . وإهانة الضيوف هى إهانة للمضيف وفضيحة لهم . أليس منكم رجل نورشدي وحكمة ينهى من أرادوا ركوب الفاحشة من ضيوفي : فيحول بينهم وبين ما يريدون . ويقول " صاحب اللطائف " : قوله تعالى { هُوَ لَأَنَّ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ } : قيل إنه أراد به نساء أمته ، فنبئ كل أمة مثل الوالد لأولاده فى الشفقة والنصيحة . ويقال إنه أراد بناته من صلبه .

« أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » يرتدى جلباب الحشمة ، ويؤثر حق الله على ما هو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك معصية الله ؟ . وأصرراً على عصيانهم ، وزهدوا فى المأذون لهم شرعاً ، وانجزوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم؛ لا يردنؤها عقل . ونهاهم عن اللواط كما فى آية أخرى وهى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ [سورة الشعراء: ١٦٥-١٦٦] .

وقوله فى آية أخرى : " قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ " . يعنى : " ألم ننهك عن ضيافة الرجال ؟ هذه هى أخلاق القرآن الكريم التى ترشدنا إلى إكرام الضيف وإطعام الطعام . فعندما جاءت الملائكة لسيدنا " لوط " - عليه السلام -

هرع إليه قومه لإرتكاب الفاحشة معهم ، فأخذهم إلى الأخلاق الفاضلة والتوجهات الراشدة ، وذلك بالزواج الحلال الطيب من بناته ، حيث هو أب لأمته ، ولما جاءت الرسل بالبشرى لسيدنا " إبراهيم " - عليه السلام - لم يلبث أن جاء بعجل مشوى وقدمه لهم ليأكلوه ، ولم يعلم أنهم ملائكة ، ولو علم ما قدم اليهم الطعام ، لأنه يعلم حقيقتهم ، وأوصافهم ، ولكن ذلك قدوة حسنة ، وأسوة تحتذى فى إكرام الضيفان ، وإطعام الطعام ، فيجب على المسلم أن يتخلق بأخلاقهم ، وأن تتحذهم نبراسا يضى أمامه الطريق اللأحِبُّ .

وفى نفس المعنى: يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ صَافٍ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ [سورة الحجر: ٦٧: ٧٠]. والمعنى : هؤلاء ضيوني فلا تقصدوهم بسوء فتلحقون بى العار وتفضحوني أمامهم ، واتقوا الله ، وخافوه أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكره .

" وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ " . ويقول " المراعى " : " قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين جنتموهم تريدون منهم الفاحشة " هم ضيوني " . وحق على الرجل إكرام ضيفه ، فلا تفضحوني فيهم ، وأكرموني بترك التعرض لهم بمكره . ثم زد النهي توكيداً بقوله - سبحانه وتعالى - : " وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ " . وهذه الجملة آكدة فى الغرض من سابقتها ، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذنب عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجاحهم ، ومجاهرتهم بمخالفته بالخزي ، وأمرهم بتقوى الله فى ذلك .

وفى معنى الإكرام وإطعام الطعام واحترام الضيفان يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

وقوله أيضا: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِ بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْآتِرُونَ أَتَىٰ أُوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة يوسف: ٥٨: ٥٩]. والمعنى: قال الذي اشترى سيدنا "يوسف" - عليه السلام - من مدينة مصر لزوجه: "اكرمي إقامته عندنا. يقول "ابن عباس" - رضي الله عنهما - : كان اسم الذي اشتره "قطفير" وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر. وعن "عبد الله بن مسعود" - رضي الله عنه - أنه قال: "أفريس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته قوله تعالى: { أَكْرِمِي مَثْوَاهُ } والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى - عليه السلام - قوله تعالى: { يَتَأْتِبِ اسْتَجِرَهُ ابْنُ خَيْرٍ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } . وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - حين استخلف عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما .

في قوله تعالى "وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ" . يعنى: خير من يكرمكم، ويحسن استقبالكم، وقال "يوسف" - عليه السلام - لهم ذلك القول ليزعنهم في الرجوع إليه، وكان قد أحسن إنزلهم وضيافتهم. فى المعنى ذاته يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الحج: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِيتُ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الحج: ٣٦]. والمعنى: وأطعموا منها البائس الذى أصابه بؤس وشدة، والفقير الذى أضعفه الإعسار.

يقول "ابن عباس" - رضي الله عنهما - : "البائس هو الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه، والفقير هو الذى لا يكون كذلك، ثيابه نقيه ووجهه غنى". ويقول "صاحب اللطائف": "شاركوا الفقراء فى الأكل من ذبيحتكم لتلحقكم

بركات الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا ساحة الخضوع والتواضع ، ومجانبة الرُّهو والتكبر . ونحن نرى أن الآيات القرآنية الكريمة آفة الذكر تحت المسلم على العطف على الفقراء والمساكين ، وهم الذين يحتاجون إلى الإكرام والمراعاة . ويقول الفقهاء : الفقير هو الذي يملك قوت يومه ، والمسكين هو الذي لا يملك قوت يومه . فواجب على المسلم صاحب الخلق أن يتعرف على هؤلاء الذين يحتاجون إلى البذل والعطاء والرأفة والرحمة والشفقة والحماية من غوائل الزمن وقساوة الدهر .

يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَالْبَدَنَتِ جَعَلْنَهَا لَكُمْ مِّنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾

سميت بدنا لبدانتها وضخامة أجسامها ، والإبل السمينية جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده . والمعنى : كلوا من هذه الهدايا ، وأطعموا القانع المتعفف ، والمعتر وهو السائل . وهذا قول " ابن عباس " - رضي الله عنهما - وغيره من السلف .

ويقول " الرازي " : " والأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبداً " . وقال بعض المفسرين : والأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر : هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبداً . وقال ابن زيد : القانع المسكين ، والمعتر الذي ليس بمسكين ، ولا يكون له ذبيحة ، ويجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم . وهي دعوة إلى البذل والعطاء والإنفاق في سبيل الله خاصة الذين يكونون بحاجة إلى المال والطعام وما إلى ذلك من لوازم الحياة .

وفى نفس المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٥٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٥٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الذاريات: ٢٧]. والمعنى : فذهب خفيةً مسرعاً ، وقدم لضيوفه عجلًا سميناً ، كما جاء فى سورة هود : " ثم استحثتهم على الأكل ، فقال لهم : " أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ . وفى هذا تल्पف منه فى العبارة وعرض حسن ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ، إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله ، وهو عجل فتى مشوي ووضعه بين أيديهم ، ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه ، وتल्पف فى العرض فقال : أَلَا تَأْكُلُونَ . وفى اللطائف : " عدل إليهم من حيث لا يعلم الاضياف ، وكذلك يكون روغان الكرام خفيةً حتى لا يسبب لأضيافه حرج .

ويقول الله - سبحانه وتعالى - فى معنى الإكرام وإطعام الطعام :

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحشر: ٩: ١٠]. ويقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكْفِرُكُمْ أَشْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُوبًا فَظَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة الإنسان: ١٠]. والمعنى : ويطعمون الطعام مع حبهم له وشهوتهم إليه فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ويتيمماً مات أبوه؛ وهو صغير فعدم الناصر والكفيل ، وأسيراً وهو من أسير فى الحرب من المشركين .

ويقول " الحسن البصري " : " كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين ، ويقول له : أحسن إليه . فيكون عنده

اليومين والثلاثة ، فيؤثر، على نفسه . وقد نبه الله - عز وجل - إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم الماسة إلى ذلك الطعام ، فى سد جوعتهم ، وجوعه عيالهم يطيّبون نفساً عنه للبوساء ، ويؤثر، بهم به على أنفسهم ، وذلك مثل قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحشر: ٩].

ويقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَلَا تَحْضُرُوا عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾

[سورة الفجر: ١٨]. والمعنى : ولا يُحَاضُ بعضكم بعضاً ولا يحثه على إطعام الطعام للمحتاجين ، وعن المساكين ، وقد ذم القرآن الكريم البخل والبخلاء الذين لا يكرمون اليتيم ولا يعطفون على المسكين ، فهؤلاء يستحقون الاهانة على هذه الخصال المذمومة . وخاتمة المطاف فيما ورد فى القرآن الكريم من الحث على البذل والعطاء والإنفاق وإطعام الطعام والعطف على الفقراء والمساكين والمحتاجين والمعوزين ، وأبناء السبيل. فيقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٥﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة البلد: ١٤ : ١٦]. والمعنى : أو إطعام الطعام يتيم من أقاربه فى أيام الجوع والعوز والفاقة ، والحاجة ، فهو جمع بين حقين : حق اليتيم ، وحق القرابة . أو إطعام المسكين الذى لا وسيله له إلى كسب المال لضعفه وعجزه . هذه هى أخلاق القرآن الكريم التى يدعو المسلمين إلى التخلق بها حتى يصبح المجتمع الإسلامى مجتمعاً متكافلاً ومتعاوناً ، حتى لا يظهر فى الجماعة الإسلامية فقير أو محتاج .

يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ

وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَلْبَسُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [سورة المائدة: ٢]. وقال - صلى الله عليه وسلم - : "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرَ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى " . بهذا تسود الامة وينصر المظلوم .^(١)

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم .
٢. السنة النبوية المطهرة .
٣. فتح الباري في شرح صحيح البخارى ، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى .
نشر دار الريان للتراث بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م ، تحقيق محب الدين الخطيب .
٤. سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار إحياء التراث
العربى بالقاهرة .
٥. سنن الدارمى للحافظ الدارمى السمرقندى ، تحقيق احمد وخالد السبع ، نشر
دار الريان للتراث ، القاهرة .
٦. سنن الدارقطنى للإمام على بن محمود الدارقطنى ، نشر عالم الكتب ، بيروت .
لبنان .
٧. المفهم ، شرح صحيح مسلم للقرطبى ، نشر دار الكتاب المصرى ، القاهرة .
٨. عمدة القارئ ، شرح صحيح البخارى للعينى ، نشر دار إحياء التراث العربى ،
بيروت . لبنان .
٩. مجمع الزوائد للهيثمى ، نشر موسوعة المعارف ، بيروت . لبنان .
١٠. سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى ،
نشر دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .
١١. السنن الكبرى للإمام البيهقى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا – نشر دار الكتب
العلمية – بيروت . لبنان .
١٢. البحر المحيط .
١٣. البحر المديد ، لابن عجيبة .
١٤. التحرير والتنوير ، لعاشور .

١٥. التسهيل لعلوم التنزيل ، لإبن جزى .
١٦. التفسير الكبير، للفخرالرازى .
١٧. الزيادة فى كتاب " النهاية " لإبن الاثير.
١٨. المعجم الوافى لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عتريس ، ط : مكتبة الآداب بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .
١٩. بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ، دار الفضيلة .
٢٠. تفسير ابن كثير .
٢١. تفسير أبوالسعود .
٢٢. تفسير الخازن .
٢٣. تفسير القرطبي .
٢٤. تفسير النسفى .
٢٥. تفسير القرطبي ، ط . دار الريان للترت . القاهرة .
٢٦. تفسير المراعى .
٢٧. تفسير الكشاف ، للزمخشرى .
٢٨. حاشية الصاوى على الجلالين .
٢٩. حاشية الشهاب للبيضاوى ، ط . مؤسسة التاريخ العربى .
٣٠. خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي، ط . نهضة مصر .
٣١. ربح المعانى للألوسى ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م
٣٢. فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشروق .
٣٣. لطائف الاشارات للإمام القشبرى ، ط . مركز تحقيق الترت ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣ م .
٣٤. مختصر تفسير ابن كثير .
٣٥. مفاتيح الغيب .